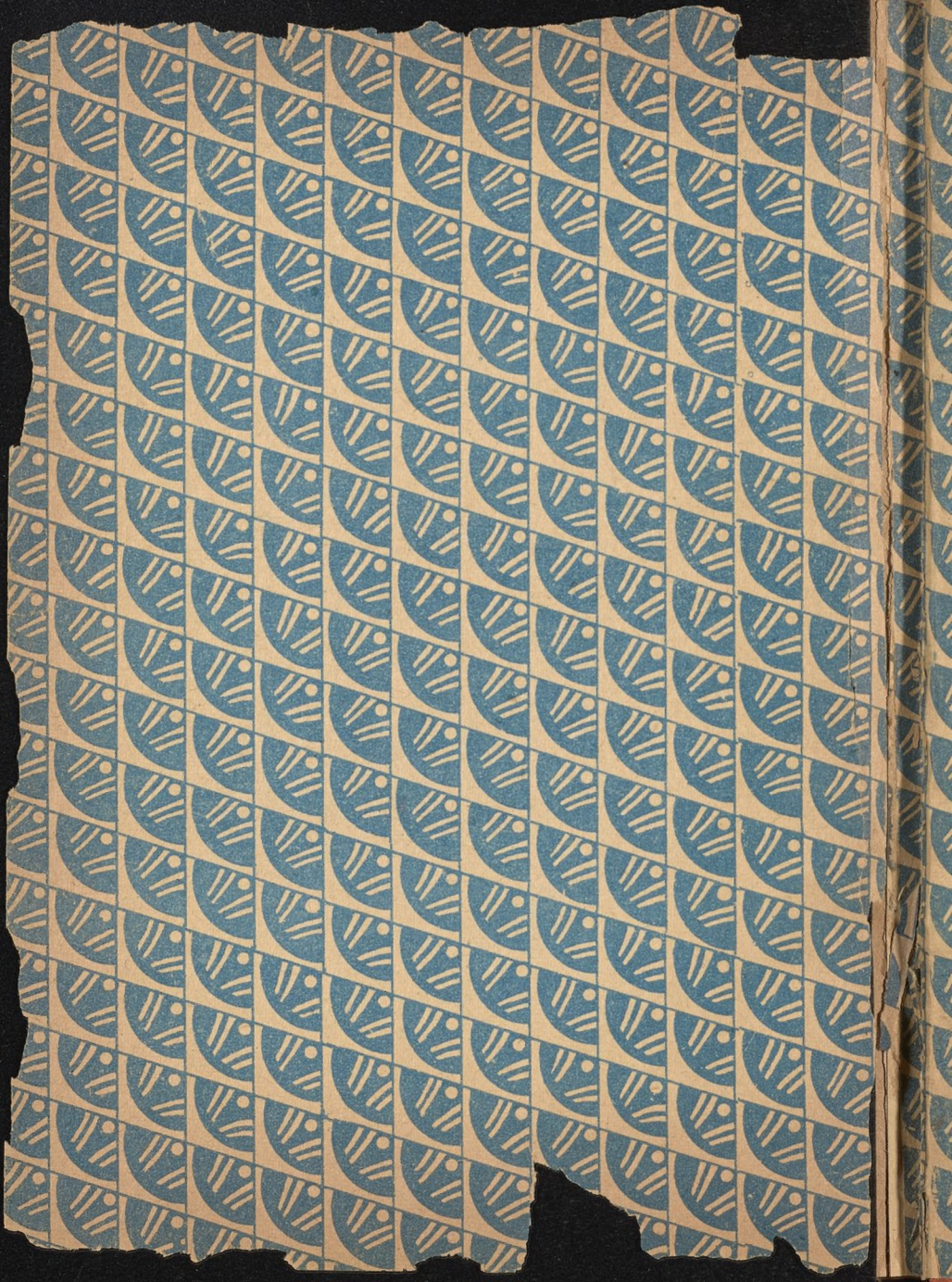


RE



893.7A291

BS

39141

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

أَبُونَوَاسٍ

قصة حياته وشعره

عبد الرحمن صدقي

ABUL JO
VIRAYAN
VIRAYAN

ملفوظات الشيخ والشراح
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

مقدمة

نقتصر في هذه المقدمة على كلمتين : عامة ، وخاصة

فأما الأولى ، فنقصد بها الى دفع ما وقع في بعض الأوهام من أن المعنى المراد بمجموعة « أعلام الإسلام » أنها وقفٌ على الترجمة للهداة المصلحين والفقهاء المجتهدين والأبطال المحاربين عن حوزة الدين . فالمجموعة فيما أرادته اللجنة القائمة بنشرها هي في حقيقة الواقع أوسع من ذلك مجالاً وأرحب أفقاً . فهي تشتمل على هؤلاء وعلى غير هؤلاء ، ممن تفيد الترجمة لحياتهم في تمثيل وجه من وجوه الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي ، في بداوته وحضارته ، وفي جده ولوهو ، وفي إيمانه وفلسفته ، حتى يخلص من ذلك كله صورةً كاملةً صادقة لما كانت عليه تلك العهود ، وما دخل عليها من آثار ، وما اختلف عليها من أطوار ، فيتمثلها المطالع العصري على جليتها وحقيقتها ويتعرف موجبات تقدمها ورقبها ودواعي تدهورها وسقوطها

وأما الأخرى فنريد بها بيان ما توخيناه في وضع هذا الكتاب ورسم معالمه وسياقه أجزائه . فقد توخينا في ذلك منهج التراجم الحديثة من إظهار

المرجم له شخصية حية موصول الرحم بآبائه ، معقود الأسباب بعصره ،
يُستبان هنا وهناك في سماته ومتصرفاته عرقُ الوراثة وأثر البيئة . ولقد أفرغنا
وسعنا وبذلنا غاية جهدنا في الاستقراء والاستنتاج من شتات أخباره حيناً ،
ومن ديوان أشعاره في معظم الأحيان ، حتى تهياً لنا في ترجمته ما تهياً من
تأسيس البنیان وإقامة الأركان ، وملء الفجوات بما يتفق مع منطق الحياة
دون أن يخلو قول من سند له ، أو - على الأقل - من مصداق على جواز
صحته ، من سير الحوادث في التاريخ العام ، وخصائص الشعوب في شتى
البلدان ، وطبائع الإنسان من حيث هو إنسان . فجاءت الترجمة لأبي نواس
- كما يراها القارئ - مطردة السياق متصلة الحلقات ، تنتظم حياته من نشأته
إلى وفاته مرحلة بعد مرحلة ، مع قلة المراجع في هذا الشأن وانصراف
الأقدمين الذين ترجموا له عن هذا السنن . كذلك كان همنا الأكبر - مع
تصوير دنياه وحياته الخارجية - تجلية حياته الوجدانية وتطوراته النفسية ،
ليتم التركيب وتوصل على قدر توفيقنا المعجزة ، فيعود أبو نواس بعد نيف
ومائة وألف سنة إلى عالم الحياة بشراً سوياً ، كما بقي في عالم الأدب شاعراً
متدارساً الشعر متعارفاً القدر عبقرياً .

غرام حبيدي

كان كلُّ شيءٍ يؤذن بسقوط البيت المالك الأموي وأقول نجمه ، بعد أن بلغت رقعةُ الملك في عهد بني مروان مثل الذي بلغته في أوج العظمة امبراطورية الرومان ، إذ كانت دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقاً الى المغرب الأقصى والأندلس غرباً . ولقد كانت العاصفة تهب من كلِّ أوبٍ وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين لا يرون في خلفاء بني أمية إلا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب المغلوبة التي يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تترقب الساعة خلع الطاعة ، وهنا قبائل العرب وبطونهم تحبش صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم ومناصب الدولة ، ثم الناقمون على السلطان من أفراد الناس وآحادهم لأسباب تخصهم ولا تعني غيرهم ، وفي غمار هذا جميعه المهيّجون دعاة الفتن الذين اتخذوا صناعتهم إيقاداً جمرها وتأريثاً نارها .

وفي هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالى الهمة مروان الثانى

وهو وقتئذ شيخ قد ناهز الستين . ولم يطل قراره في دَسْت الملك حتى انتقض
أهلُ حمص وفلسطين ، فأبلى القائدُ الحنكُ في حربهم وأوقع بهم وأخذ
ثأرتهم ، وخرج عليه الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليمن والحجاز
والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن ظهر عليهم وأجلى
من كانوا منهم باليمن والحجاز إلى حضرموت ومن كانوا بالعراق إلى ما وراء
دجلة .

وطلب مروان بن محمد بعضَ الراحة والاستجمام في قصره المحبَّب إليه
في « حرَّان » . ولكنه كان مع ذلك غير مطمئن الخاطر من ناحية فارس
وخراسان ، فأنفذ الجندَ إلى ما وراء دجلة للشحنة والرباط .

كان من الأطراف التي أوفد إليها الخليفةُ الأمويُّ البعثَ لعظم شأنها
من الوجهة الحربية ، كورة الأهواز بين البصرة وفارس . وكان من رجالها
جندىٌّ من غمار الجند شاءت المقادير أن يحفظ التاريخَ اسمه طوال ما غبر
من سواف السنين ، وهو لا محالة حافظه في مستأنف الأيام إلى أبد الآبدين
ذلك الرجل هو « هانى » . وكل فضله أن المقادير شاءت أن يكون أباً
لابنه « الحسن بن هانى » أحد الأعلام الخالدين من شعراء العربية المجددين .
قدم « هانى » مع سائر أجناد فرقته إلى الأهواز ، وأقاموا معسكرهم في
ظاهر المدينة . وكانت المدينة تُعرف بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من

النواحي المجاورة ولما يصدر عنها من السكر الجيد المنسوب إليها . ولم يكن بين الجند من ارتاحت نفسه إلى هذه النقلة للذى وجدوه من حرها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينة من منافع المياه الغليظة والسباح هبوة داخنة متصاعدة ، يُقابلها الجبل الصخري الناصب المطل عليها ، فتتعقد في الجو وتزيده حرًا ووخامة . فإذا أظلم الليل واستروحوا بعض البرد في جنحه ، لم تطمئن جنوبهم إلى المضجع من لسب البعوض . فلا جرم يقبلون بعضهم على بعض يذمون الأهواز ويبالغون .

ولم تلبث الحامية أن تفشت فيها الحمى . ولم يسلم منها « هانى » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً . وكانت لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من علته في آخر الأمر وصب البدن منهوك القوى وكانت سوق الأهواز تخترقها مياه مختلفة . وكان هذا كل ما يستحبه « هانى » فيها ، لما تذكره به المياه الجارية من مناظر دمشق الشام - موطنه الحبيب ، وحاضرة الملك وقتئذ وقصة الإسلام . وهو أشد ما يكون انجذاباً إلى ذلك الوادى العظيم الذى يشق الأهواز ، لا يميل النظر إلى مائه الأحمر الزاخر من المدود ، ولا يضجر من جلبة النواعر والأرجاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالصفة القريبة ، بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقاً في تأمله ، يغوص بنظرته في طوامى عمرته حتى يبلغ العدو^(١) الأخرى .

في عصر يومٍ شديد الحر خرج « هانى » إلى النهر ، وأطال السير محاذياً

له التماساً للنسيم وارتداداً للخضرة . فكانت تتوالى على ناظره من أحد جانبيه
خنائل أشجارٍ وشجيراتٍ موقرات بالفاكهة والثمار ، ثم مزارعُ الأرض مغمورة
بالماء ، حتى إذا أبعد في المسير انبسطت على مدِّ البصر مغارسٌ قصب السكر
قائمة الشطاط كأنها الجيوش الكثيفة اعتقلت الرماح الخطيئة ، فإذا التفت
إلى الناحية الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمر ، امتلأت نفسه روعةً
وجلالاً ، من تدفق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يجري في حدود مسيله كالخيل
الكمّت في مجاريها ، وموجهٌ يضرب ويغلي ويموج بعضه في بعض ، ويعاود
أثباجه ^(١) من شدة فوره وجيشانه مثل اللغام ^(٢) من قطع الزبد وطرائق
الرغوة ، وقد عج عجيجه وارتفع هديره .

ومضى « هاني » مأخوذاً يطوى الطريق ، وهو في شغلٍ عن المسافة التي
قطعها ، والتي يلزمه في العود أن يطوى أذراجها . حتى إذا انقطعت المزارع
وتبدل لعينه المنظر ، ثاب إلى نفسه فرأى الشمس جانحةً للمغيب ، وطالعه
غير بعيد منه قريةٌ صغيرة على سفح ربوة . وأحسّ وقتئذٍ فقط بما أصابه من
التعب ، فمال إلى صخرة يستريح .

وإنه ليلتفت حوله إلى ألوان الأصيل على الموج وما ترسمه ظلال الصخور ،
إذا بعينه تأخذ شخص امرأةٍ على بعض الحجارة المتقدمة في الماء ، وهي مكبّة
على شيء تغسله في النهر ، وقد شمّرت عن ساقها وحسرت عن ذراعها ، وهما
يضيئان من نضاعة اللون والبياض . ولم تكن بالكثيرة اللحم ولكنها كانت

(١) أواسطه وأعالیه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

مكورة مبتلة ، بضّة الذراعين تامة الساقين ، وكان شعرها المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما أن شعرت المرأة بالقادم أ راحت متهدّل الشعر عن جانبي وجهها ، ونظرت إلى ناحيته . وكان حسبها هذه النظرة لتعرف من هيئته وبزته أنه لا بد من أجناد الحامية العربية . ولم يكن هانى يشارك الجند في خشونة الطباع والسرعة إلى التفحّم والاجترأ ، فلم تجفل المرأة منه وأخذت فيما كانت فيه ، وهو يلاحظها ويدّيم النظر إليها معجباً ببياضها وملاحة حركتها . ولعل ذلك ازدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظر في الحين بعد الحين . ولا تمنعه أن تلتقي عيناها . وقد وقع ولا شك في نفسها قوائمه وشاربه المفتول ووجهه الأسمر الذهبي تحت عمامته العربية . فلما فرغت من شأنها ، قامت تحمل إيجانتها^(١) ولم تحفل من العجلة أن ترمّ الجيب^(٢) على صدرها . وقد توخّت أن يكون طريقها من أمامه . وأقبلت وهو ينظر إليها . فلما دنت ابتسمت له وابتسم لها ، وتجراً فسألها عن هذا الذي معها فقالت « صوف أغسله » . وعلم منها في بعض ما علم أنها تنسج الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قد درنقت وكاد يختفي قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنه مسرعة دون أن تبوح باسمها . ومضت مصعدة في سفح الربوة ، وهي تمس ناعمة لينّة ، وقد أبدى أعطافها ثوبها المبلّل اللاصق بها ، وكان شعرها الوارد يضرب إلى حقويها . فلم يملك هانى نفسه أن تبعها على خطوات منها حتى دخلت القرية وكانت الدروب على ضيقها تزعجها قطعان الغنم القافلة من

(١) الاجانة : إناء تغسل فيه الثياب (٢) الجيب من القميص أو الثوب : طوقه وماقور منه

مراعيها . ولكنه لم يدع المرأة مع هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتاً من تلك البيوت المتضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفتت إليه لفتةً زادته لهفةً على لهفة .

ولم يبرح « هاني » حتى تعرّف المكان ، فعرف أنه بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « إستانه أثار »^(١) ومعناه باب النار ، وأن اسم فاتنته « جُلُبان » أى غصن الورد .

لم ينعم « هاني » طويلاً بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد انتزعه من بين ذراعيها - قبل أن ينصل خضابُ العرس من يديها - نفيهُ الحرب ، لدفع الفتنة المحذورة ، وقد ارتفعت بعد الخفاء أعلامها واندلع في الأفق ضرامُها .

في ليلة الخميس ، لحس بقين من رمضان من سنة ١٢٩ هجرية ، أوقدت النيران على قنن الجبال بموضع بخراسان ، وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين إظهاراً للدعوة وإعلاناً للشورة . فأقبلت العشرات

(١) ورد اسمها « أستان ماتارد » ولعله خطأ في النسخ وتخليط بسيط من تحريف الحروف عن مواضعها وصحته « إستانه أثار » أى بإضافة الميم التي بأول الكلمة الثانية إلى النون في آخر الكلمة الأولى فتكون هاء ، ثم جعل الدال التي في آخر الكلمة الثانية سكونا على الراء ، فيكون اسم القرية « إستانه أثار » ، وهى بعينها « باب أذر » التي وردت في مراجع أخرى محاليلاده ، لأن إستانه معناها باب ، ولفظ أتر - أو - أدر - أو - أذر بمعنى واحد أى النار

والمئات والألوف من الأشباح المتشحين بالسواد ، مجهزين بالعدة والسلاح ، وانتشروا كقطع الظلام تظلمهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوار معظمها من الخراسانيين ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصوات نغمة تخرج من أجواف منكرة . وهم إلى ذلك ذوو عدد كثير ، وجلد ظاهر ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل . وانتظم الزحف ، واشتد الهجوم ، وغلظ أمرهم واستوثق . فاكثسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها .

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية وإحكام تدبير الثورة وتسيير دفتها ، أن أسقط في يد عمال الأطراف من قبل الأمويين ودب الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختلف الأمر واستشرى الفساد وانخلت الحاميات العربية في خراسان ، ثم في العراق . ثم التقى الجيشان : جيش مروان وقد جرد من رجاله - ممن اختارهم من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم - مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، وجيش المسودة الكثيف برماحهم كأنها النخل غاطاً ، وفي أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البخت وقد جعلت أفتابها من خشب الصفصاف والغرب . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » لآحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة ١٣٢ هجرية ، فكتب النصر للثوار الخراسانيين فتمت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بني أمية وظفر بالخلافة بنو العباس .

وكان من أثر هذه الغلبة تسريح الحاميات العربية وتفرق شملها ، ومنها
 حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسي الظافر « أبو العباس السفاح » قد وجه
 عمه اسماعيل عاملاً على كورها . وعاد « هاني » الجندي القديم إلى زوجته في
 قريتها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزع النفس بين الكمد
 والسرور . فقد كان يسره أن تنتهي الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من
 انقطاع مادة رزقه ، وسقوط شوكة قومه . واستقبلته « جُلبان » كما تستقبل
 المرأة المحبة زوجها ، وقد استظارها الفرح وماد بعظيماً وغلب عليها . ولم
 يكن فرحها كله خالصاً له ، فقد كان بعضه لقومها الغاليين ، ولكنه مضمر
 في طوايا نفسها لا يبين . ولم يعدم الجندي القديم وسيلةً للكسب الشريف ،
 فاشتغل برعى الغنم وبالحياكة ، ومضت هي في صنع الأخراج ونسج الجوارب .
 وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعي ، وألهاهما عن الفاقة ورقة الحال
 ما كان بينهما من استدامة الضبوة والغرام . وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها
 عدة أولاد^(١) ، نعرف منهم فتاة يقال إنها كانت عند فرج القصار وهو
 عبده كان لأحمد بن عصمة الله الباخرزي ، ونعرف من الذكور اسماعيل ،

(١) قيل إن هانئاً لم يكن له ولد ولا خلف غير أبي نواس ، وقيل إن له أولاداً غيره .
 وقد رجح الرأي الأخير عندنا أنه قد جرى اسم أحمد أبي معاذ على ألسن الرواة أكثر من
 مرة على أنه أخ لأبي نواس ، ثم زادنا ترجيحاً ما ورد في تاريخ الأئمة والملوك للطبري في
 قوله في الجزء العاشر في الصفحة ٢١٩ ما نصه (وذكر عن إبراهيم بن اسماعيل بن هاني
 ابن أخي أبي نواس قال حدثني أبي قال هجا عمك أبو نواس مضر في قصيدته التي يقول
 فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ »)

ونعرف أكثر منه أحمد أبا معاذ وهو الذى يقال إنه كان يعمل مؤدباً لأولاد فرج الرخجى الخباز^(١) ، ثم نعرف الحسن - وكان مولده فى القرية نفسها المعروفة بباب النار سنة ١٤١^(٢) فى عهد ثانى الخلفاء العباسيين أبى جعفر المنصور - وهو الذى نبغ ذكره من الأسرة وبه عرفت ، حتى كان أبو معاذ مع عطلة من مذاهب الأدب وقلة إحسانه لشيء منها يتعیش بأنه أخوه ، وكان اسماعيل كثير الرواية له وعنه روى ابنه ابراهيم .

وهذا « الحسن بن هانى » هو شاعرنا الذى عرفته الأجيال بعد ذلك باسمه الحبيب « أبو نواس » ، واجتمع أكثر النقاد العرب على أنه أشعر الشعراء المحدثين .

(١) ورد فى بعض رسائل الجاحظ « فى صناعات القواد » ما نصه « وسألت فرجا الرخجى وكان خبازاً . . . »

(٢) اختلف الرواة لكادتهم فى مولد أبى نواس ووفاته . فذكروا فى مولده سنوات ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٥ - ١٤٨ - ١٤٩ وجاء فى الجزء السادس عشر فى الصفحة ٧٤ من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال « أنا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت فى أول سنة ١٥٠ وولدت فى آخرها » . وذكروا فى وفاته سنوات ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ولكنهم على الاجماع أو ما يشبه الاجماع من أنه مات وعمره تسع وخمسون سنة . ولما كان أبو نواس قد رثى الأمين وكان قتل الأمين فى سنة ١٩٨ ، فالمرجح أنه توفى سنة ١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده فى سنة ١٤١ وهذان التاريخان لمولده ووفاته يطابقان ما نقله جامع ديوان أبى نواس حمزة بن الحسن الأصبهاني عن أبى بكر أحمد بن شقير النحوى عن أحمد بن أبى طاهر .

طالب علم

كان بأطراف البصرة ، في بعض الدروب التي تخرج من سكة المريد ، بيتٌ من القصب تسكنه امرأةٌ أهوازية وفدت عام ١٤٣ هـ على البصرة ومعه زوجها وهو وقتئذ طرازٌ حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديث عهدٍ ، فلا جرَم يكون ضعيفَ المقدرة مضيقاً عليه في الرزق . ولم تسكن امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بلبانٍ غلامها « الحسن » - وكان ابن سنتين^(١) - غلاماً من ثقیف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثير الغناء ، ولكنه كان عوناً على كل حال لمن كان بموضعهما من الحاجة وكثرة العيال . ولم تطل المدة حتى أرملت « جُلبان » وأصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها وكانت من النساء برزةً شمللاً ، لها على الحياة جرأة وإقبالٌ ، فلم يركبها همٌّ ولم تفقر لها همة . وعمدت إلى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تعشى

(١) قيل في بعض روايات ابن منظور أن أبا نواس انتقلت به أمه إلى البصرة وهو ابن ست سنين ، ولكن الذي آثرنا هو ما ورد في ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره ستان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصمعي أن أمه كانت في البصرة ترضع بلبانه غلاماً من ثقیف ، وهذا القول قاطع بأنه كان رضيعاً وقت قدوم أمه به

البيوت بما تصنع من جوارب وأخراج بيدها الصناعات المدربة ، فانفجرت شدتها وحسن أمرها ، وانتقلت إلى دار في المدينة من الأجر والخص . وفنقت تجارتها ، وقصدها بعض الراغبين في أشياءها من الغواني والرجال حتى قيل إنهم كانوا يلتقون عندها على موعد وإنها كانت تجمع بينهم لريبة .

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تغص بالسكان من كل لون وسحنة . فهي واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقاً إلى الهند والصين ، وتمتد غرباً إلى أقصى بلاد المغرب ، وترسو مئات السفن في فُرُضتها تحمل أصناف المتاجر من ناحية البحر أو الرافدين .

وفي هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفي هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جُلْبَان » عيشتها في طلب الكسب . وكانت - مع ما يدخل إليها من ربح - لا تخرج عما انطبع عليه أهل الأهواز من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صفار السمك المملوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دأبها في البخل على نفسها وعلى ولدها .

ولقد زاد « جُلْبَان » استمساكاً بالحرص ما كان يتقلب على عينها أو يتصل بسمعها في عصر الانتقال الذي تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحياناً من ثورات ويستشري من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، ورسخت دولته بعد مقتل أبي مسلم الخراساني وعلت في الناس كلمته وملاّت الصدور هيبته - ومن

ذلك ما جرى في البصرة نفسها بين سمعها وبصرها . فقد ظهرت الدعوة في سنة ١٤٥ محمد العلوي - الملقب بالنفس الزكية - من حفدة الحسين بن علي ، وكان معظم رجال البيت الهاشمي ومنهم المنصور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة في أيام الثورة على البيت الأموي ثم عادوا فأثروا بها أنفسهم . وكان من شأن إظهار الدعوة أن وثب أخوه إبراهيم على البصرة ، فغلب عليها وأبدل شعار أهلها من السواد إلى البياض واتخذها مقرة ، ثم انبسط أمره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد . فلما وقر في النفوس أن الدولة للعلويين ، وأنه قد أدبل لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعاً حتى قال في ذلك بشار بن برد مشيئاً لعهد أبي جعفر المنصور متشقيماً بمصير دولته :

أبا جعفر ، ما طولُ عيشٍ بدائم ولا سالمٌ عما قليل يسالم
إذا بالجيوش العلوية تهزم ، ويتبدل الحال غير الحال . وتعود البلاد كلها
إلى حوزة الخليفة العباسي فيعمل القتل في العلويين ، وينبكل بمن آزر دعوتهم
من أشرف البصرة ، يصاب منهم من يصلب ويسجن من يسجن ، ويدك
دورهم ويخرب بساكنهم ويصادر أموالهم . واختلطت الأمور في المدينة
واضطربت الأرزاق ردحاً غير قصير من الزمن .

وواضح من هذا أن الظروف المحيطة والأحوال الملائسة لم يكن من شأنها أن تعدل مجلبان عن طبيعتها - لو صح أن للمرء عن طبيعته معدلاً . فهي ماضية في حرصها بتواطؤ من طبعها وعقلها .

ولقد دفعت جُلَّبان الصبي منذ نعومة أظفاره كسائر الصبيان في البصرة الى كُتَّاب من المسكاتب القريبة من الدار . فكان « الحسن » يغدو إليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزاً حتى تقدّم الغلامُ فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التقصير في المسكاتب الضرب والجلس . والذي يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصف غلام في « مكتب حفص » ناله الضرب من مقرعة المعلم وهو ناعم من الغلمان المترفين المدللين . والمقطوعة كسائر مقطعات شاعرنا غاية في لطف التصوير وآية على خفة الروح والدعابة :

قال حفصُ « إجلدوه إنه عندي بليدُ
لم يزل مذ كان في الدر س عن الدرس يحميدُ
كُشِفَتْ عنه خُزُوزُ وعن الخَزِّ بُرُودُ^(١)
ثم هالوه بسَيْرِ لئن ما فيه عود
عندها صاح حبيبي « يامعلم لا أعود »

وكان اشتهر في البصرة في ذلك الحين القارئ العالم يعقوب الحضرمي وهو من بيت علمٍ بالعربية والأدب، وقد ذاع تعليمه للقراءات وأصبح إمام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة في القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهداً ورعاً ناسكاً ،

(١) الخَزُّ من الثياب ما نسج من حرير - والبرد ثوب مخطط .

فجعل يعلمه حسبةً ولا يأخذ على تعليمه أجراً . وزاد أنه حين رأى حفظه وحذقه رمى إليه بخاتمه قائلاً : « اذهب فانت أقرأ أهل البصرة »

ولما شبَّ الغلام رغب في الأدب وتعلق بالشعر . ولم يقع ذلك من أمه موقعاً ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئاً لما يحصل عنها في البصرة من وافر الأرزاق . فأسلمته على رغبة إلى بعض العطارين يعمل عنده ويبرى له عود البخور . فلم يصرفه ذلك عما في نفسه . وجعل كل يوم يأتي المسجد الجامع فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ إلى سارية ، ولكل مُريد أن ينتظم في الحلقة التي يريد . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر في المسجد على علوم الدين ، وإنما علومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخ فيه من المسائل والموضوعات . فكان « الحسن » يقعد بين مَنْ قعدوا إلى أبي زيد الأنصاري النحوي اللغوي ، يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات من كلام العرب وقصائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها وغريب ألفاظها . ويتحول إلى « أبي عبيدة معمر بن المثنى » الفارسي الأصل العربي المربّي ، فينفسح له الأفق وهو يصغى إلى كلامه المستبجر الجامع عن أيام العرب وقبائلهم وأنسابهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس وكان لشعوبيته يتعرض للعرب أحياناً ويبسط القول في مثالها . وتقد كان أبو عبيدة - لأصله الفارسي - صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، وإذا قرأ البيت من الشعر لم يُقيم إعرابه ويُنشده مختلف العروض ، مع وفور عقله واشتاله على علوم العرب . حتى جرى قولهم فيه أن من يأتي مجلسه اشترى

الدرّ في سوق البعّز . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه :
 « أديم طوى على علم » . ثم كان الحسن يقبل على « خلف الأحمر » وهو
 من أبوين فرغانيين وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيها
 بالشعر ونقده وبالشعراء ومذاهبهم . فمتلقى منه ويتلمذ عليه ويكثر من
 الجلوس إليه . وكان يشهد أحيانا في بعض الأركان من المسجد مناظرات
 الأدباء ومُلاحاتهم ويمرّ أحيانا ببعض الشعراء وقد انتحوا ناحية يُمَلُون
 أشعارهم في شتى الأغراض من المديح الى الغزل . وكان يحضر الحديث على
 الإمام « عبد الواحد بن زياد العبدى » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدثين
 الثقات . فإذا انتهى الكلام فليس يخلو المكان من أصحابه يستمع إليهم
 ويأخذ عنهم

وظلّ الحسن أعواما على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقل في
 المساء بين هؤلاء وغيرهم في مسجد البصرة وفي دورهم ، يلتهم علوم زمانه
 التهاما ، ويطوى مراحلها طيّا . وهو في أثناء ذلك لا يفتّر عن معاناة الشعر
 وتسقط أخبار الشعراء ، وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والمجان .
 وكان الفتى حسن الوجه ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفا كبير الهامة
 منسدل الذوائب ، أثلغ بالراء يجعلها غينا ، وفي حلقه بحّة لا تفارقه ، وذلك
 إلى لين طبع وحلاوة شمائل . فكان إذا دخل حلقة الدرس التفت القوم
 إلى حسنه وحداثه سنّه وجمعه خفة الروح والفراهة إلى الذكاء وقوة التحصيل
 وكان من لفتهم صاحبنا في هذه السن أو نحوها محمد بن منذر الشاعر .

فقد دخل ابن منذر في بعض الأيام المسجد الجامع بالبصرة ، فوقعت عينه على فتى مستند الى السارية ، فالتمس رقعةً ودواةً فكتب إليه أبياتاً مدحه بها ، وسأل غلاماً أن يوصل الرقعة إليه . فلما قرأها التفت قلبها وكتب على ظهرها ساخرًا ماجنًا :

مثلُ امتداحك لي بلا ورق^(١) مثلُ الجدار بُني على خُصٍّ
والدُّ عندى من مديحك لي سودُ النعال ولينُ القميصِ
فلما قرأها ابن منذر قام إليه فقال : « ويلك ، أنت الحسن ؟ » . قال :
« نعم » فسلم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

ولقد أشار شاعرنا الى هذه الحال في مستأنف أيامه في قصيدة له مطلعها :

إذا ما وطئ الأمر دُلعلم حصي المسجد

وكانت أمه قد شغلت عنه بغرامٍ جديدٍ بمن يدعى « العباس » شاع خبره حتى شهرت به ، ولقد أصاب الحسن من ذلك تعييرٌ لداته وأقرانه ، وتعرض فيه لقول من هاجهم وهاجوه بعد ذلك من الشعراء والشواعر . ومنه قول أبان اللاحق :

إن يكن هذا النواصي بلا ذنب هجانا
فلقد عفناه حيناً وصغفناه زمانا
هاني الجون^(٢) أبوه زاده الله هوانا
سائل العباس ، واسمع عنه من أمك شانا

(٢) الجون الأسود إشارة الى شدة سمرة

(١) الدراهم المضروبة

ولم يكن إلا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقية الباقية من رعاية أمه
فلقد انتهى الأمر بزواجها من الرجل الذي أحبته . وكانت من صنف المرأة
التي لا تصبر على عزوبة ولا تفنى عن زوج . فانصرفت الى الزوج الجديد
بكليتها وأذهلت عن ولدها ، فأهملت شأنه غاية ما يكون الإهمال ، وتركت
للعطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى وأمه ، ولم يتصل سبب
بينهما حتى موته .

ولعل الفتى ارتاح في دخيلة نفسه إلى ما صار إليه من مطلق الحرية ،
إذا شاء ركب رأسه ، وإذا شاء لزم درسه . فقد كان الحسن متقدماً على سنه
في بكور عقله ، وفي يقظة حسه . فهو شديد الهم الى المعرفة وإلى الحياة
معاً . وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذاك عامرة زاخرة .

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، وأحد المصيرين
- البصرة والنجف - اللذين كانا قبل بغداد يقومان على إشاعة المعارف
والعلوم العربية ، وسائر البحوث النقلية والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان
الأدب وضروب الثقافات . وكان في ذلك تنافسان وتتفاخران وتتكاثران
بالنوابع والعطاء في كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك - بما يزعم
أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الأموال والخيرات - حاضرة عظيمة
من حواضر اللهو ، تعج بما فيها من الملهى وأسباب اللذة وموجبات الفتن

والغوايات . وبلغ من ذلك أن خلفاء بني العباس حين فكروا في التحرز
للكهم من أطماع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير البصرة
يُقطعونهم فيها القطاعاتِ والضياح الواسعة ، ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى
يشغلهم مقامهم فيها بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة .

وكانت المدينة في حقل من المناظر الحسنة والمجالس الأنيقة ، تتخللها المياه
وتتوسطها الميادين العجيبة ، وترهو بالحُصْب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات
الفواكه الأثيرة . وكان واديها الأعظم - مجتمع الفرائين المعروف بشط العرب
- يُقبل مأؤه مُعِنَقاً ويفيض متدفقاً . وهو بالحدائق المتصلة منتظم - فأوله
الرُّطْب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب - وبينها معاصر الدُّبْس . ولم يكن
في الدنيا أكثر نخلاً منها حتى كان يباع التمر فيها بأبخس الأثمان ، وكانت
النخيل تتصل مسافات شاسعة إلى أرباضها ومحلاتها وما جاورها ، فلا يكون
الإنسان في مكان إلا وهو في نهرٍ ونخيلٍ ، أو بحيث يراها .

ولم يكن الحسن بالمغمض العينين ولا بالمعلق القلب عن هذه المفاتن .
وهو من علمنا من يقظة الحسّ وتفرّز الأعصاب وتشوّف النفس . وكان يمرّ في
كل صباح ومساء بالجداول والبرك الفسيحة تجري فيها الزواريق والسماريات
وفيهما المتزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ، منحدرين
ومُصعدين . فإذا احتواه حانوت العطار الذي يعمل عنده ، تطرّق إلى سمعه
ما يذكره المترددون لشراء الأطياب والبخور من وصف لما كان من مجالس

اللهو ونوادير السكر ، وإنشاد لأحدث ما نظمته الشعراء المحدثون في الخلعة
والمجون . حتى إذا كان العشيّة مع أهل المسجد لم تخلُ حلقاتُ الدرس من
رواية بعض الملح والبطالات في الحين بعد الحين ، يرويها المشايخ متفكهين
غير متحرجين ، بحجة أن في بعض الهزل تنشيطاً للقلب وذهاباً بالكلال ،
فضلاً عن كان يلتقي بهم الفتى ويرافقهم في الطريق من الشطار والعيّارين
ومن لفّ لفهم من خلطاء السوء

الذئب والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار
الذى أسلمته إليه ، وإن يكن قد كره هذه الصناعة وملها ، بمقدار ما زاد
اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثر غشيانه للأسمار وسماعه لرواة الأشعار .
وكانت نفسه تهتز للشعر ، تتشرب معانيه شرباً ، وتتطرب لوزنه ونعمه
طرباً ، وتغمرها منه غمرة تسكر حسه وتغلبه على وعيه . وكانت أمنية حياته
التي بها يحلم ، أن يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكركم ويتغنى أهل
العصر بشعرهم .

ولقد شاء القدرُ الساهر فيما يخلط من خيرٍ وشر ، أن احتاج عاملُ
المنصور على الأهواز « أبو بجير الأسدي » إلى عطرٍ يعمل له ، فلم يجد في
الأهواز عطاراً يصلح لذلك . فبعث إلى البصرة في طلبه ، فأشخصوا إليه
أستاذ الحسن والحسن معه . وأقاما يعملان في داره . واتفق أن قدم الأهواز
والبة بن الحباب الأسدي الشاعر قاصداً للأمير - وهو ابن عمه - فمدحه وأقام
عنده . ووقع نظرُ الشاعر الغزل الماكن على « الحسن » فاستحلاه وأعجب

بظرفه . ثم خاطبه ووَصَلَ معه الحديث ، فسرَّه ما كان عليه « الحسن » من الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث أن اطلع منه تعلقاً بالشعر ، ورغبةً في الاقتدار عليه ومجاراة صاعقة القريض ورواض القوافي من الشعراء المذكورين . فقال له : « إني أرى فيك مخايل فلاح ، وأرى لك ألا تضيّعها . وستقول الشعر وتعلو فيه . فاصبني حتى أخرجك » .

فتطلع الفتى متشوقاً إلى هذا الذي أحسن الظن باستعداده ، وقطَعَ على نفسه العهد الأكد بتخريجه . ولم يملك أن سألَه مبتدراً : « ومن أنت ؟ » . قال : « أبو أسامة » . فهتف الفتى : « والبة ؟ » . قال : « نعم ! » . فتهلل الفتى وفاض قلبه بما كان يخالجه زمناً : « أنا والله — جُعْتُ فذاك — في طلبك ، وقد أردتُ الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك » . قال الرجل متعجباً مغتبطاً : « ولماذا ؟ » .

فاسترسل الفتى ساجح النظرة فائز النفس : « شهوةً للقائك ، ولأبياتٍ سمعتها لك » . قال : « وما هي ؟ » .

فأشَد الحسن بصوت حلو ألشع ، يجعل الرء غينا ، وفي نبرته حرارة الإعجاب وهزة التأثر :

ولها — ولا ذنب لها — حُبُّ كأطرافِ الرماح
جرحتُ فؤادك بالهوى فالتلبُّ مجروحُ النواحي
فازداد والبة حباً وعجباً .

وكان والبة مذكوراً في البصرة ، وقد شاع ذكره واستطارت شهرته
 فيها لقدمه في جملة من قدموا على « محمد بن أبي العباس السفاح » حين ولاء
 عليها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة ١٤٧ بعقب مقتل إبراهيم العلوي .
 فلقد ورد العامل الجديد ومعه جماعة من الشعراء والمغنين ، وأحبه عمه
 المنصور - داهية بنى العباس - قوماً يُعاب بصحبتهم ومجاناً زنادقةً ، ليعض
 ذلك منه فيرتفع ابنه المهدي عند الناس . وكان « محمد بن أبي العباس »
 يغلف لحيته بأواق من الغالية فتسيل على ثيابه فتصير مسمرة حتى لقبه
 أهل البصرة « أبا الدبس » . وكان ممن يُعَنُّونه دُحَّان وحَكَم الوادي
 ويشترك معهما أحياناً مؤدبه الخليل حماد عَجَرْد في جماعة من ندمائه منهم
 والبة ، وهم جميعاً يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر فينامون في
 مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوي البنية شديداً نهايةً في الشدة ، فكان
 أول من يفيق منهم . وكان يهوى « زينب بنت سليمان بن علي » فاذا شرب
 غنوه بما قال - أو بما قال حماد عَجَرْد على لسانه - تشبهاً بها فيطرب ويضرب
 برجله . وكان يأنس أشد الأنس بالوبة ، ويسكن إلى ظرفه وخفة روحه ،
 ويستحسن شعره ووصفه للشراب ، حتى يؤثر عن ذلك في البصرة أن حَكَمًا
 المغنى دخل عليه أيام ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فاذا به يتململ خماراً
 ويبيده كاس وهو يجتهد في شربها فلا يطيعها ، وندماؤه بين يديه وفي أيديهم
 أقداحهم . فقال « يا حَكَم غننى ، فإن أطربتني فلك كل ما يهدي إلى اليوم »

وكان بين يديه من الهدايا أمرٌ عظيم . فعمد الحكم إلى أبياتٍ لوالبة ، فاندفع
يغنى بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النحوسُ

واليوم هو نيروزٌ قد عظمتَه الجوسُ

لم تخطه في حسابٍ وذاك مما تسوسُ

فطرب الأمير لها ، واستعادها ثلاث مراتٍ ، وعبّ قدحه ، واستمر في
شربه . وأمر لمطر به بأن يُحمل إليه كلُّ ما كان بين يديه .

وكان هذا وغيره من الأخبار والأشعار يشيع عنه في البصرة ويتسامع
به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها في تلك الأيام . فوقع الحسنُ - ولا جرم -
تحت تأثيرها ، وأخذته شهرة الرجل بسحرها . فلما التقى به ، كان تِلْقَاءَهُ
كالنوم خدر النفس مضجع الحسن مسلوب الإرادة . فلم ينشب والبة أن
اخذعه حتى صار معه إلى الكوفة .

ورد الغلام مع أستاذه إلى الكوفة ، فطالعه من جانبها الشرق نخيلٌ
ملتهمة متصلة تمتد امتداد البصر ، وألفاها أطف من البصرة حرًّا ، وألقى
الهواء فيها أصحَّ ليس بالرطب الثقيل ولا بالندى يختلف في اليوم الواحد ،
وهي كذلك أطيب ريحاً بما في سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف
البصرة إذا هبت الجنوب على أرضها النشاشة السبعة . والكوفة مرتفعة عن
البصرة معظمها على الفرات ومنه شرب أهلها . ويأتيها الماء بعدوبته وبرده ،
ولا يأتي البصرة إلا بعد تغيره وفساده مع ما يصيبه من الملح الذعاق إذا كان

المد في الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هذا كله فقد رأى الحسن - وإن كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح لوالبه وصحبته - أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهد صباه لم تزل أحب إلى قلبه وأحلى في عينه من أختها الكوفة ، وأنها أقوى منها عمارة ، وأكثر خلقاً وأزحم قدماً وأدوم حركة ، كما أنها أشد تنوعاً وأبهج مجلى ، أوتيت من كل حلى وزينة .
وكان والبة بن الحباب على قولهم في نسبته - أسدياً صليبية . ولكنه كان مع ذلك أشبه بالموالى الروم منه بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون محمره ، ذهبي الشعر - كما تدل عليه صفته في هجاء أبي العتاهية له وتهجينه لنسبه إذ يقول من قصيدة :

وابن الحباب صليبية زعموا ، ومن المحال صليبية أشقر
ما بال من أبائه عرب الأ
أترون أهل البدو قد مسخوا
أكذا خلقت «أبا أسامة» ، أم
مالى رأيت أباك أسود غر
وكان وجهك حمرة رنة
ومن قصيدة أخرى :

أوالب ! ما دهاك ، وأ
أراك ولدت بالمر
جئت أقيشر الحدي
ت في الأعراب ذونسب
نخ يا ابن سبائك الذهب
ن ، أزرق ، عارم الذنب

هَلُمَّ إِلَى الْمَوَالِي الصِّدِّ د فِي سَعَةِ وَفِي رَحَبِ
فَأَنْتَ بِنَا - لَعْمَرِ اللَّهِ ه - أَشْبَهَ مِنْكَ بِالْعَرَبِ

وأهاجى الشعراء في والبة كثيرة ، وأكثرها فاحشٌ مقذع كالذي
هجاه به « سَلَمُ الْخَاسِرِ » - وهو رَافِيَةٌ بشار وتلميذه - لما كان عليه والبة
من القابح والمقاذر الخلقية . وكان والبة أبعد ما يكون عن ملازمة أهل الجَدِّ
من العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الاجتهاد في الدين ممن اشتهروا في مدينة
الكوفة الجلييلة ، وفاخرت غيرها بهم . وإنما كان يجتمع إليه في الكوفة
جماعة منهم مطيع بن إياس ، وحماد بن محمد ، ويحيى بن زياد الخارثي من
مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وهم فوق عيهم بالجواري والإماء
بعدون أقدم المهتسين في تعشق الغلمان من الشعراء . فيتنادمون في بعض
دورهم على الشراب والغناء ، ويتناشدون الشعر ، ويسكرون فيعربد بعضهم
على بعض أقبح العربدة ويتهاجون هزلًا وعمدًا أخش الهجاء . وكان أهل
الفن لذلك العهد يتعاشرون فلا يكادون يفترون ، ويتشاركون فلا يكاد
يستأثر أحدهم على صاحبه بمالٍ ولا ملكٍ حتى الجواري والغلمان . ولا عجب
فكلهم خلعاء مجَّان مستهترون ، ليس فيهم إلا متظرفٌ منسوبٌ إلى الزندقة
حيث العقيدة متهمٌ في دينه . فلما قدم والبة إلى موطنه ومعه الحسن ، وجه
إلى أصحابه وندمائهم ، فجعل لهم مجلسًا احتفاءً بتلميذه ، ولبثوا أيامًا في صَبَوح
وغَبَوق ، يسمرون ويتمازحون وينشدون الأشعار .
وكان والبة ماجنًا طبعًا . وكان مضياعًا متخرفًا في النفقة على الجواري

والغلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتقدة مبذولة للشرب المندمين ، وعلى الإخوان
ممدوداً للإخوان المؤاكلين . حافلاً بكل ما لذ وطاب من غير حساب . وهو
مع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسع عليه فى العطاء ، فلقد فاتته الخطى منادمة
الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهدي لبعض أشعاره ، كراهة منهم
لإسفافه فى أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القذرة واستهتاره
فيها . وإنما كان يقصد إلى من يشاكله من عمال الأمصار ، وهؤلاء كانوا
لا تدوم لهم دولة . ولا يقيمون بعملهم حتى يُصرفوا عنه ويُرَوا . فلم يكن
له من معول على غير المجدودين من أقاربه ، ثم من هم أكثر منه خطوة أو
أقل تبذيراً من أقرانه . ومن ذلك ما ذكرناه من قدومه على ابن عمه أبى مجير
الأسدي عامل الأهواز ، ثم ما نحن ذا كروه من قصده إلى الشاعر حماد عجرد
يطلب إليه بعض المال ، فلما أنظره لم يأنف من العودة إليه . ويقول الرواة
فى ذلك انه سأله عما وعد ، فقال حماد « لم أصنع شيئاً » ، فدعا والبة بدواة
وقرطاس وأملى من كتب له هذه الأبيات :

حماد ما كانت عدا	تك بالعدا الكاذبه
فعلام ، ياذا المكرم	ت وذا الغيوت الصائبه
أخرت - وهى يسيرة	فى الرد - حاجة « والبه »
فأبو أسامة حقه	أحد الحقوق الواجبه
فاستحي من تراده	فى حاجة متقاربه
ليست بكاذبه ، ولو	والله كانت كاذبه

فَقَضَيْتَهَا أَحَدَتَ غِبِّ قَضَائِهَا فِي الْعَاقِبَةِ
وَبَدِيهِي أَنْ حَمَادَ عَجْرَدٍ إِنَّمَا يَسْمَعُ لَأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْ يَمْدَحِهِ وَيَنْعَتِهِ نَعْتَ
ذَوِي الْمَكْرَمَاتِ الضَّافِيَةِ وَالْفَيُوثِ الصَّائِبَةِ ، فَلَا غُرُؤَ أَنْ قِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّهُ قَضَى
لِلْمَادِحِ حَاجَتَهُ وَزِيَادَةَ .

وَكَانَ وَالْبَةِ يَكْثُرُ مِنَ الْخُرُوجِ لِلنَّزْهَةِ وَمَعَاقَرَةِ الْخَمْرِ فِي دَسَاكِرِ طِينِ نَابَازٍ
بَيْنَ الْكُوفَةِ وَالْقَادِسِيَةِ ، فَيُظَلُّ يَشْرَبُ حَتَّى يَسْكُرَ ، وَلَا يَفِيْقُ مِنَ السُّكْرِ إِلَّا
لِيَعَاوِدَ الشَّرْبَ ، وَيَقِيْمُ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا لَا يَكَادُ يَصْحُو . وَقَدْ صَحِبَهُ « الْحَسَنُ »
إِلَى هَذِهِ الْأُمَّاكِنِ يَتَنَزَّهُ مَعَهُ وَيَشْرَبُ ، وَكَانَ وَالْبَةُ لَا يَنْبَغُ عَلَيْهِ السَّاقِ
فَيَسْقِيهِ حَتَّى يَتَلَفُ ، فَإِذَا هُوَ إِلَى جَانِبِهِ سَكْرَانٌ لَا يَعْقِلُ وَلَا يَعْنِي مَا يَفْعَلُ ،
قَدْ خَلَعَ الْحِشْمَةَ وَجَحَنَ . وَلَقَدْ ذَهَبَ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي الْمَجُونِ أَنْ جَعَلَ وَالْبَةُ فِي
سُكْرِهِ يَقْبِضُ عَلَى السَّكِينِ وَيَهْمُ بِقَتْلِهِ ، لَوْلَا مَا أَظْهَرَ الْفَتَى مِنْ سُرْعَةِ الْبَادِرَةِ
وَأَسْتَحْضَارِهِ لِمَثَلٍ مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَائِرَةِ ضَحَكَ لَهُ أَسْتَازُهُ الْخَلِيعُ . وَظَلَّ وَالْبَةُ
عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مَعَ تَأْمِيذِهِ يَحْيِفُ عَلَيْهِ بِالْشَّرَابِ وَيَغْرِيهِ بِالْمَجُونِ وَالْأَسْتَهْتَارِ ،
حَتَّى تَمَّ لَهُ مَرَادُهُ مِنْ تَوْهِينِ خَلْقِهِ وَإِفْسَادِهِ .

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَعَاشِرَةُ لَوَالِبَةِ وَأَصْحَابِهِ قَدْ عَلِمَتْ « الْحَسَنُ » الْفَسَادَ
وَالْعَهْرَ ، قَدْ هَيَّأَتْ لَهُ الْإِتِّصَالَ بِالشُّعْرَاءِ ، وَحَفَزَتْهُ مَنَادِمَتُهُمْ فِي مَجَالِسِ السُّكْرِ
إِلَى النُّطْقِ بِالشَّعْرِ . وَمَا يَرُوْنَهُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ وَهُوَ صَغِيرٌ فِي صَحْبَةِ أَسْتَازِهِ
بِالْأَقْطَابِ الثَّلَاثَةِ حَمَادَ عَجْرَدٍ وَمُطِيعِ بْنِ إِيسَى وَيَحْيَى بْنِ زِيَادٍ ، فَقَالُوا « لَيْكُنْ
مِنَا اجْتِمَاعٌ فِي دَارِ أَحَدِنَا » .

وقال حماد :

يا إخوتي عندي لكم بطة^(١) ودنّ خمر من رساطون^(٢)
ولحم طير وأتايعة فإن نشطتم فأجيبوني

وقال مطيع :

اللهو عندي جميعاً حديثه وعتيقه
وقرطقي^(٢) شهى يفوح منه خلوقه^(٣)
والخمر عندي عتيق^(٤) يشفي القلوب غبوقه^(٤)

وقال يحيى بن زياد :

عندي نبذ معسل^(٥) والموصلي وزلزل^(٥)
وبطة وخروف وماه مزن مزمل
وبربط وصنوج^(٦) وصوت ناي وججل

وعندها التفتوا جميعهم إلى « الحسن » كأنما له - وهو الصغير الغريب

بينهم - داراً ومالاً مثلهم، فأرتج عليه لحظة ثم ضحك وقال :

لا تطمعوا في شرابي فتحصلوا في السراب
فدون خبري ولحمي والخمر شيب الغراب

(١) لفظ رومي معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل (٢) قرطقي أي نديم يلبس القرطوق وهو ضرب من القباء من زى العجم (٣) ضرب من الطيب .
(٤) الشراب بالعشى (٥) الموصلي وزلزل من أعلام الموسيقى والغناء
(٦) البربط نوع من العيسدان والمزاهر - والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار .

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادموا على الشراب .
وكان ينعقد لهم في كل يوم مجلس من هذه المجالس في عقر دورهم أو على
سطوحها أو في ظاهر المدينة بين البساتين أو في بيوت الحمارين . ولقد أفاد
الفتى من ذلك مرانة على النظم وقدرة على الارتجال ، وصار في مقدوره كلما
شاء أن يكون كلامه كله شعراً بغير جهد ولا معاناة . خرج يوماً مع والبة من
الكوفة يريدان الحيرة وكانا يمشيان وأرجلهما تغوص في الرمل وقد جاعا، فدار
بينهما من المقال ما يدور في أمثال هذه الحال إلا أنه شعر :

الحسن :	يأليت فيما بيننا سِتَّةً	أرغفةً ما بينها وَرَّةٌ
والبة :	من وَرَّأرض الصين يُوقى بها	مشويةً تتبعها رَزَّةٌ
الحسن :	خُذَابَةٌ ^(١) ، تُؤَخِّدُ من بعدها	خمرٌ من الحِيرَةِ المُرَّةِ
والبة :	يُدِيرها ساقٍ وقد شابهها	من ماء مُزِنٍ صَوْبٌ مُؤْتَرَّةٌ ^(٢)
الحسن :	طاب لنا العيش ولكننا	أرجلنا في الرمل مرترَّةٌ ^(٣)

وجملة القول ، أن تواتر هذه المناديات والمطارحات ، كان داعياً للحسن
على شحذ قريحته وإيقاظ ملكته إلى إدراك المعاني واقتناصها ، والاستعداد
لها باللفظ المناسب والقالب المحكم . فكان في كل يوم يزداد تمكناً من فنه ،
ويزداد معه ثقةً بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتداء ، بل جعل
يجاذب الجماعة ويباريهم ، ويطاولهم ويستقلّ عنهم .

(١) طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (٢) سحابة فائرة (٣) مغرورة ثابتة

صبوات الصبا

كانت الكوفة في ذلك العهد مشهورة مذكورة عند أهل السماغ بقيانها
الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان أجلّ المقينين بها وأكبرهم
عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وغيرهن .
وقد قال الشعراء فيهن وأعادوا القول يذكرونهن بالحسن وحلاوة الصوت
وأفانين الصناعة . وكانت ربيعة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء لينة . وكانت
أوفرهن حظاً سلامة الزرقاء وكانت تخرج إلى المعجبين بها في إزار ورداء
قوهيين^(١) موردين كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيها ، وقد أشال نهودها
ثوبها عن صدرها ، ولها كالشارب وبرّ خفيف مخضر ممتد على شفتيها ،
وكأنما خطت طرقتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويتصر عن
كل ضرب من ضروب حسنها الوصف .

وهؤلاء الجوارى القيان قد شهرهنّ الكثيرون من فتيان وشيب ،
منهم الشعراء وأهل الأدب وأصحاب الإمارة . وكانت تبذل أموال عظيمة في
شرائهن ، أو من أجل قبلة ، أو ابتسامة رضا منهن . ولقد عرض بعضهم لؤلؤتين ،
نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشرط على القينة ليكونا لها إلا أن

(١) نسبة إلى قوهستان

تأخذها بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معن بن زائدة وابن المقفع وروح بن حاتم المهلبى ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه فى مجلس سماع من هذه المجالس تغت الزرقاء ، فبعث معن إليها بدرة فصبت بين يديها ، فبعث روح إليها أخرى فصبت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع درهم فبعث بصك ضيعته .

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانه ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منبج مولى عيسى بن موسى وكان يجتمع إليه أشرف الكوفة من كل حى . وكان بين المنزلين منافسة تظهر فى حرصهم على مرضاة هذا الشاعر أو ذاك لما فى الشعر من حسن الدعاية .

فى هذا العهد من التولع بالغناء والمغنيات كان مقدّم « الحسن بن هانىء » الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة فى سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التى كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو فى بعض الأحيان من الجوارى القيان اللواتى على شاكلتهم ، من كل ماجنة متهتكة ، أدبية متظرفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان . فكان يعاطين هؤلاء الجان الراح ، ويستحشّن إليهم الأقداح ، ويسابقنهم إلى الشرب ويجالسنهم متبذلات ، ويطارحنهم الجون والبذاء ، فضلا على اللعب بالعود والغناء . ولعل الحسن كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعا بالعود يضربه . ومضت على ذلك أيام وأيام . ولا ندرى بعدها أكانت المصادفة ، أم دراية هؤلاء النسوة المجربات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف

وولع الكبار منهم بالصغيرات خاصة ، هي التي شئت لهم أن يصبحوا معهم
 إلى المجلس طفلة كاعبا . وكان معظم اللواتي يغشين المجلس ممن تجاوزن غرارة
 الشباب وأدركهن النضج ، ممتلئة أجسامهن ، ثقال روادفهن وافية تقاطيعهن
 وأعطافهن ، وقد طالت لهم بالرجال ملابس وخططة ، وقتلن الحب معرفة
 وخبرة ، حتى صرن أفترا نشاطاً وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فجورهن
 وخلاعتن ومع ما يبدنه من تصنعهن وتكسرن وكثرة تضاحكهن . وأما
 الضيفة الغريرة الصغيرة السن فإنها تختلف عنهن : مهففة القوام ، طويلة
 خوط المتن ، لا يكاد يبين لهدايا حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية
 الأرداف ، فهى إلى الغزال أقرب منها إلى الهامة . وكانت خفرة مسيلة الهدب
 غضيضة الطرف ، خدّها من الحياء كجنى الورد ، وكأنه أول خروج لها من
 خدرها . ولقد تلقى الجماعة لقاءهم لغيرها بالمرح والعبث شأن أهل اللهو ، إلا
 « الحسن » شدّ عنهم في هذه المرة ، وكأنما أنسى ما أخذه عنهم من العريضة
 والمجون . فبقى معهم سواد الليلة ساهما محتشما على غير عادة ، مع أنه حاف على
 نفسه في الشرب وأكثر فوق العادة . ولما أظهر القوم عجبهم له اعتذر بوعكة
 خفيفة به . ولو لم يُلهم عنه ما هم فيه من السكر لآلقوا الفتى في وجومه
 يلحظ الفتاة ويختلس إليها النظرة ، وهى على حياها لا تحس من قدحها بعد
 اللجاجة والإلحاف إلا النغمة بعد النغمة مستكرهة للشرب لم تتعوده تعود
 المتوفرات على مجالسه .

وقضى الجماعة والجواري شهرتهم على المألوف من سنتهم في المعاقرة والقصف ، حتى غار النجم وبدا فلق الصبح ، فاستقبلوه بالصبوح ثم تفرقوا . وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتى يستطيل غيبتها ويديم التفكير فيها . ولعل الذي وصلها بقلبه ما بينهما من تقارب العمر ، وتلك الغرارة التي لم يعرفها فيمن لقيهن من النساء حتى لقيها . وإنه ليحس نحوها بشيء لا عهد له به ، يسرى في كيانه وينساب إلى وجدانه ويمتزج بأجزاء نفسه ويخالط قواها .

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجواري في زوراتهن ، و « الحسن » يزيد اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت ليله وأرقت عينه ، واشتدت به الحال وساءت صحته وشفه السقام . وزاد في بلائه كما زاد في عجزه أن رأى فتاته لم تنشب أن تعودت الشراب حتى انساق مع الجماعة ، منصرفة عما كان يبدية لها من جد الحب ، مؤثرة لما هم بسبيله من متاع القصف والاهو الصاخب وانطوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدحمت في خاطره المعاني ، فتحركت شاعريته وانبعثت ملكته ، وجرت قريحته بأول ما جرت به من شعر وجداني صادر عنه غير مقترح عليه :

حاملُ الهوى أعبُ يستخفه الطرب^(١)
 إن بكى يحقُّ له ، ليس ما به لعب
 تضحكين لاهيةً والحب ينتحب

(١) ذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر وهو صبي .

تعجبين من سقمى صحتى هى العجب

كلما اتنى سبب منك ، جاءنى سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة واقطع خبرها ، كما غابت من النساء غيرها
وحلت أخريات محلها ، شأن من يتعرضن لهذه الحياة الطائشة المتقلبة
وينزلن في غمارها .

ولكن القى وقف هنا وقفة ، ولم تعبر به هذه الواقعة إلا بعد تأكيد العبرة .
فقد اقترن في نفسه ما كان من أمه وتفرطها فيه وهو صغير إشاراً للتبعل ،
ثم ما كان وهو شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعها عن جدّ العاطفة
إلى هزل الحياة ولهوها . فاجتمع له في بداية تكويته من هذين رأى في « المرأة
والحب والحياة » بقى في نفسه وحسّه مثل وسم النار لا ينمحي آخر العمر .
ولقد استأنف القى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل عليها ولا ملتدّ
طعمها . والذكرى تراجع ، وخيال الفتاة يعاوده . ومن كان مثله في سنّ
العشق ، لا بد أن يتجرّق من لاعج شوق . ومهما يكن في هذه السن من غلبة
الطبيعة وتيقظ الحس ، فانها أيضاً أوان تفتح العاطفة والاستجابة الوجدانية
لدواعي النفس .

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة حبه الصباني من
ملاسلها المادية ، وتحولت صورة الفتاة في مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت
في باطن وعيه وقرار سريره كالمثل المجردة في عالم المعاني .

وانفق وهو في هذه الحال أن قدم بصحبة والبة إلى منزل محمد بن سيار
ابن يعقوب، ولديه قيان أخرجهن لندمائته، وجلس ابنه في صفهن وكان جميلاً
رائعاً في العين مع حسن موقع في النفس. فكان من فيض خاطر «الحسن»
وسبحاته العبقريّة إنشاؤه لهذه الأبيات اللطيفة الروحية.

يا ظبي ابن سيار وزين صف القيان
خلقت في الحسن فرداً فما لحسك ثاب
كأنا أنت شيء حوى جميع المعاني
لينعتك وهى إن كل عنك لسانى

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرة في بعض أوساط
الكوفة، فاتصل به أدباؤها ورغبوا في صحبتته، فشاهدوا منه أدباً جماً، وكبر
في أعينهم وعظم موقعه عندهم. وكان أشدهم شعوراً بعظم استعدادده وما هو
مدخر له في مستأنف حياته، أستاذة والبة بن الحباب، حتى عرض ذلك له
في الأحلام.

فانه - فيما يرويه عن نفسه - يقول: كنت نائماً ذات ليلة، والحسن إلى
جانبى نائم، إذ أتاني آت في منامى. فقال الهاتف: «أتدرى من هذا النائم
إلى جانبك؟». قلت: «لا».

قال: «هذا أشعر منك وأشعر من الجن والإنس. أما والله لأفتنن
بشعره الثقلين، ولأغرين به أهل المشرق والمغرب».

فعلمت أنه إبليس . فقلت له : « فما عندك ؟ »

قال : « عصيتُ ربي في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا
ألف سجدة لسجدت » .

ولم يكن « الحسن » ليخفي عليه موضع الإحسان في قول ، فكان من ذلك
أنه على صغره لم يأخذه الشك في شعره ، بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير
عليه لأحد ممن حوله كبير تقدم ومزية . فأدركته أنفة من الحياة التي يحياها
مع والبة . فاعتزم الرحيل ، وأذنه به ، معتذراً بالخروج مع وفدِ لبني أسدٍ إلى
البادية في طلب شوارد اللغة والأحاطة بغريبها والتمسك من مذاهب الأعراب
في الجزالة وفعل الكلام .

أثر البادية

أقام « الحسن » في البادية سنةً أفادت روحه في أثنائها مسحةً من روحها واكتسب من صحة جوهرها بعض الصحة في جسمه ونفسه ، وزادت حياة القطرة من دقة ملاحظته ورهافة حسه . ثم عاد إلى البصرة من بعدها مثقل الجعبة من مآثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطعاتها . ولقد احتقب خياله فوق ذلك الكثير من مناظر البادية ومجالي جمالها ، وتعرف أرضها وسماءها ونباتها وحيوانها، حتى أصبح أعرف أهل الحضرة بأبصرهم بجمالها وكانت هذه الخبرة عتاده فيما نظم بعد ذلك من القصائد العصماء في بابي الصفات والطرديات .

وتلقى أهل البصرة عودة « الحسن » بالتعجب والتساؤل ، لما كانوا يعهدون عنده من فرط الإعجاب بوالبة وتقنيه بشعره ولهجه بذكره قبل أن يلقاه ، وكان ظنهم وقد آقاه أنه غير مفارق له العمر كله . فساكن « الحسن » أول عودته يسمع في كل خطوة من يقول له بعد تحيته : « أرغبت عن والبة وملا الكوفة !! » فيجيب موجزاً متأدباً : « هي أجدى وأطيب من أن

تَمَلَّ ، ووالبة ممن لا يُرْغَب عنه ، ولكنِّي نَزَعْتُ إلى الأوطان واشتقتُ
إلى الإخوان »

واستأنف « الحسن » في البصرة حياة الدرس والتحصيل . وكان حلقات
الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالمربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن
يغشاهما ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد
بلغ من ذلك أن تحدّث عنه جماعة من الرواة ممن شاهدوه في مستقبل أيامه
فقالوا : « كان أقلُّ ما في الحسن قول الشعر ، فقد كان فخلاً راوية عالماً » .

والبصرة أسبق عهداً من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلمائها
من أرسخ الناس في العلم قدماً وأغزهم مادة وأولاهم بالثقة وأصحهم سنداً ،
مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بني العباس لهم واتخاذ
المؤدّبين لولدهم من بينهم ، جزاء نصرهم إياهم والسرعة إلى تلبية الدعوة دون
أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة . وجعل الحسن يختلف إلى حلقات
الدرس التي كان يختلف إليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام
أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان
كتاب سيبويه آية العصر لم يسبق أحدٌ إلى مثله ، وامتنع في اعتقاد القوم
أن يلحقه أحدٌ من بعده ، فهو الإمام فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ
من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلان الكتاب » فيعلم
أنه كتاب سيبويه ، و « قرئ الكتاب » فلا يشك أنه كتاب سيبويه ، وكان

أشرف هدية تهدي إلى أهل العلم . وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيه . فلا عجب أن ترى المترجمين لا يحسن يحرصون على ذكر قراءته له ونظرة فيه .

ولم يكن بين أساتذة « الحسن » بعد عودته من الكوفة إلى البصرة من لزمه الفتى وأفاد منه مثل « خلف الأحمر » . ولا جرم ، فقد كان شاعراً يعاني نظم القريض ويحسسه ولم يكن مجرد عالم بالشعر راوية له . وإذا كان الأقدم في أستاذيته والبة بن الحباب ، فإن خلفاً الأحمر كان هو الأكثر تأديباً وتخريجاً له .

و« خلف » أول من أحدث السماع بالبصرة ، وكان أوسع الرواة روايةً لأشعار البادية . ولقد كان الناس من قبل ، وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب « العباس بن الأحنف » الشاعر الغزل المعاصر ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب حتى صار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ^(١) . وكان خلف يقول الشعر فيجيد ، وربما نحل الشعر المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم . ولكنه انقطع منذ نسك عن تزوير الكلام ، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يبالون إذا روى خبراً أو أنشد شعرًا ألا يسمعه من صاحبه . وليس أدل على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس بببيت شعر ، من احتكام بعضهم إليه واستنصاحهم إياه . ولقد شاع في ذلك قول مروان بن أبي حفصة له : « نشدتك

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

الله يا أبا محرز ، إلا نصحتني في شعري ، فإن الناس يُخدعون في أشعارهم » .
 كما شاعت قصة ابن مناذر الشاعر وقد حضر مأدبة كان فيها خلف الأحمر
 وتلميذه الأصمعي . فقال الشاعر لخلف : « يا أبا محرز ! إن يكن النابغة
 وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة . فقس شعري إلى شعرهم
 واحكم فيها بالحق » . فغضب خلف لهذه الدعوى العريضة . ثم أخذ صفحة
 مملوءة مرقا فرمى بها عليه ، فقام ابن مناذر مغضبا ، ولعله هجاه بعدها من
 جراء ذلك .

ولم يكن خلف الأحمر ضئيلا بشيء من أدبه على تلميذه « الحسن »
 وإذا كان والبة قد جرأه على الشعر كما جرأه على السكر وهو غلام ماطر
 شاربُه بعد ، فإن خلفا في تعصبه للجزالة وجودة السبك وتنطسه في النقد
 عمل على كف جماحه وألزمه التريث والتثبت واستكمال أدائه وتقوية ملكته
 قبل كل شيء ، وأعلنه بقوله : « لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ
 ألف مأثور للعوب ، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » . فعكف الحسن
 يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوى الذاكرة ،
 فوعاها في مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها » . فجعل خلف
 يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرها في عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر
 قلب لا يخرم منها حرفا . فلما أظهر الأستاذ أن ذلك حسبه وأن الذي أداه
 التلميذ فيه مقنع وأي مقنع ، عاد الحسن يسأله أن يأذن له في نظم الشعر .
 فإذا الأستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف الأرجوزة » .

كأنك لم تحفظها» وكان الفتى جيد الحافظة بعيد النسيان ، فاحتج متعجبا :
 « هذا أمر يصعب على » ، فإني قد أنقنت حفظها » فأصر الأستاذ : « لا آذن
 لك إلا أن تسأها » . فذهب الحسن إلى بعض الديرة خالياً يتفرج
 وأقام مدة حتى نسيها . ثم حضر فقال مؤكداً : « قد نسيتهما حتى كأن لم أكن
 حفظتهما قط » . عندئذ قال الأستاذ : « الآن إنظم الشعر » . ولقد روى عن
 شاعرنا أنه قال « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن
 الخنساء ويلي ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذي أخذ به الأستاذ لتعليمه ظاهر فيه أنه إنما أراد إلى
 تخريج شاعر لا رواية . ومن ثمة كان دفعه إياه إلى التكثر من المحفوظ ثم إلى
 تعدم نسيانه ، تحقيقاً للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيد من غير
 قتل للمسكة الشاعر المطبوع فيه .

ولقد جاءت أشعاره وهو في كنف أستاذه شاهد صدق على مبلغ ما كان
 من تأثره بالأساليب القديمة وشعر الأعراب

ومن هذا القبيل رثاؤه لأسعد بن عصمة المشهور بأبي البيداء الرياحي
 وهو أعرابي نزل البصرة يعلم فيها الصبيان بأجرة وأقام بها عمره ، وكان من
 الفصحاء ينقل الرواة عنه وروى له « الحسن » شعراً . ومن شعره يتغزل :
 قال فيها البليغ ما قال ذو العسى ، وكل بوصفها منطبق
 وكذاك العدو لم يعد أن قال ل جميلاً — كما يقول الصديق
 وقد أتت مرثية « الحسن » فيه — كما هو المرتقب لذلك الحين منه —

متوعدة ، عليها جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية وعنجهية البادية ، كثيرة الغريب ، حوشية اللغة . ومطلعها :

هل مخطئ حنفة عفر بشاهقة رعى بأخياها شتا وطباقا
إلى أن قال :

زار الحمام أبا البيداء محترماً ولم يغادر له في الناس مطراقاً^(١)

ومن طريف ما ذكر أن الأستاذ الأحمر قال ذات يوم لتلميذه الحسن ، ولعلها طريقة استحدثها لتخريجه : « إرثنى وأنا حتى حتى أسمع » . فلم يميل الحسن أن جاء بمرثية لم يملك السامعون لها إلا استجابتها ، ولكنهم تعللوا وقالوا له إن كنت قلتها فقل في نحوها . فاعتزل وعمل فيه أخرى . فلما أنشدوها وقعت موقع سابقتها . فقال أستاذة : « أحسنت والله » . فقال القتي مازحاً : « يا أبا محرز ! مت ، ولك عندي خير منها » . فقال : « كأنك قصرت ؟ » . قال القتي : « لا ، ولكن أين باعث الحزن ! » . ولما لم يكن سبيل إلى إرجاء الأستاذ حكمه حتى يرى ما يقال فيه بعد موته فقد صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بني ! إن شعرك فوق سنك . ولئن عشت ، لتكونن رئيساً في الشعر » .

وأما المراثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم . وإحداها رجز ومطلعها
لو كان حتى وائلاً من التلف لو ألت شعواء في أعلى شعف
والأخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها إلا أنها ليست رجزاً وهي

مثبتة في ديوانه كأختها ، إلا أنه في هذه وتلك أبيات لا بد من إيرادها .
وهي قوله في الأولى :

أودى جماع العلم إذ أودى خلف من لا يعد العلم إلا ما عرف
قليل من العيال الخسف فكلماء نشاء منه نفترف
رواية لا نجتني من الصحف

ومثله في القصيدة الثانية :

لما رأيت للنون آخذة كل شديد وكل ذي ضعف
بت أعزى الفؤاد عن خلف وبات دمعى إلا يفيض يكف
أنسى الرزايا ميت فجمعت به أمسى رهين التراب في جدف
كان يسنى برقه غلقاً في غير عى منه ولا عنف
يجوب عنك التى عشت بها من قبل حتى يشفيك فى لطف
ولا يعمى معنى الكلام ، ولا يكون إنشاده من الصحف
وكان ممن مضى لنا خلقاً فليس منه إذ بان من خلف

وهذه الأبيات من المراثيتين أوردناها لأنها فوق بلاغتها بليغة الدلالة على
مكان خلف من شاعرنا الناشئ . ولقد كان التلميذ يكثر من ذكر أستاذه
ويفخر به . ولم يزل يقول فيه « جمع علم الناس وفهمه » . وكان خلف
كما تقدم له حذق بالشعر وطبقة فيه ، وقد اجتمع له ديوان شعر حمله عنه
« الحسن » .

كذلك كان التلميذ أثيراً عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر من لسان أنه كان من أميل الخلق إلى « الحسن » وأنه يوده أكثر من غيره من الشعراء . ولما كان خلف ولاد في الأشاعة وكان أحد عمال اليمن وكان عصبياً ، فقد استدعى « الحسن » يوماً وقال له : « أنت من اليمن ، فتكن باسم من أسماء الذّوين » . والذّوون هم المصدرة أسماءهم بـ « ذو » من ملوك اليمن . وأحصى « خلف » له أسماءهم وخيّرهُ ، فاختار منها « ذا نواس » . فكنّاه « أبا نواس » . فصارت له كنيةً وغلبت على « أبى على » كنيته الأولى . فهو منذ ذلك الحين إلى يومنا يُعرف بين الناس عوامّهم وخواصّهم « بأبى نواس » .

وغنى عن البيان أن معرفة خلف بموضع أبى نواس في الأدب هي التي جعلته يدعو الفتي إلى إظهار نسبته إلى اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من شأنه ، تعصباً لها

والأنساب ما برحت عند العرب موضع مفاخرة . وقد وقع من ذلك للشعراء مادةٌ لهجاء من يريدون هجاءه ، بالتفنيد لدعواه وتهجين نسبه بالحق وبالباطل .

وكان أبو نواس من نسل الموالى ، فادّعى في أول دعوته أنه من ولد عبيد الله بن زياد من بنى تيم اللات . ولكن شاعرنا لم يهنأ طويلاً بدعوته إذ قيل له إن الرجل الذي تدّعى إليه لا عقب له ، لأنه فلج ومات عن غير ولد .

فاستحى الدعى ، وتحول عنهم على كره منه وكان يكبر شأنهم ويراقبهم .
وأما بعد ذلك صدرًا من عمره يخلط في دعوته . فتارة يدعى للزارية
وينتسب للفرزدق ، وتارة ينقلب على الزارية ويدعى لليمنية وأنه من قبيلة
« حَكَم » . وكان كلما ادعى لواحدة هجا الأخرى وأقذع في هجائها حتى
هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه عليه وغرّم له تأميرًا
ووقعهم فيه تصريحًا . ومن ذلك هجاء الفضل الرقاشى له :

نبتى ، فإذا قيل له : « أنت مولى حَكَم ؟ » قال « أجل »
هو مولى الله - إذ كان به لاحقًا ، فالله أعلى وأجل
واضعًا نسبتَه حيث انتهى فإذا ما رابه ريبٌ رحَّـل
ولقد ظلّ الرقاشى وأبونواس يتهاجيان فما أمسك واحدٌ منهما عن
صاحبه حتى فرّق الموت بينهما .

وكذلك قول سليمان بن أبى سهل بن نوبخت :

وَيُنَمَى إِلَى حَكَمٍ دَعْوَةً • وما إن له نَسَبٌ فِي حَكَمٍ

على أن المذكور في أمر أبى نواس أنه كان بالفعل مولى الحكيمين .
وهى قبيلة كبيرة باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكيم أمير خراسان وقد
كان جد أبى نواس من مواليه . ومن أجل هذا تكرر من الشاعر نخره باليمن
ومدحه اليمنية ، وإذا كان قد عرض لها بالشتم مرة فذاك من حرّ غيظه وغليان
صدره على بعض اليمنيين وبخاصة هاشم بن حذيج الكندى ، وقد قال فيه :

وَتَحْتَدُّ ، حَتَّى يَخَافُ الْجَلِيسُ أَذَاكَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَدَّةِ
وَتَحْتَمُّ ذَاكَ بِفَخْرِ عَلَيْهِ بِكِنْدَةٍ ، فَاسْلَخَ عَلَى كِنْدِهِ
وَلَمْ يَلْبَثِ الشَّاعِرُ أَنْ اعْتَذَرَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذْرِ ذَاكِرًا أَنَّهُ يَمْنَى وَأَنَّهُ لَمْ
يَجَاوِزْ بِشْتَمِهِ الْيَمِينِيَّةَ أَنْ سَبَّ نَفْسَهُ وَأَهَانَ وَالِدَهُ :

فَأَقْسَمَ مَا جَاوَزْتُ بِالشَّمِّ وَالِدِي وَعِرْضِي ، وَمَا مَزَّقْتُ غَيْرَ أُذُنِي
وَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ أَبُو نَوَاسٍ فِي بَعْضِ دَعَاوِيهِ هَذِهِ يَتَاجَرُ وَيَعْبَثُ عَلَى
عَادَتِهِ ، وَلَا سِيَّاهُ أَنَّهُ كَانَ فِي أَثْنَاءِ هَذَا كُلِّهِ لَا يَنْسَى أَنَّهُ فَارِسِيٌّ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ
وَأَنَّ لَمْ يَذْكُرْهَا خَشْيَةً أَنْ يُهْجَى بِهَا . فَكَانَ يَتَعَاوَمُ فِي شَعْرِهِ كَمَا سَنَرَى ،
وَقَدْ ذَهَبَ فِي آخِرِ أَمْرِهِ إِلَى هَجْوِ الْعَرَبِ أَجْمَعِينَ ، وَاسْتَنَّى فِي الشَّعْرِ غَيْرَ سَنَةِ
شَعْرَاهُمْ الْأَقْدَمِينَ .

ملفتى التيارات

لقد كان المسلمون في صدر الإسلام مشغولين بالفتح . ولم تكن شواغلهم الفكرية إلى قبيل زوال الدولة الأموية تعدوا المنازعات بين الأسر الطامحة ، والاختلاف في الإمامة بين أمية وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهاد في المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام إلا في أواخرها .

فلما استقرّ الأمر للعباسيين صرفوا همهم عن الفتوح إلى توطيد دعائم الإمبراطورية العظيمة التي آلت إليهم ، فلم يعرف لهم جهادٌ لنشر الدين وتوسيع حوزة الإسلام ، وإنما كانت حروبهم قمعاً لفتنة في الداخل أو دفعاً لنكث العهد ونقض الشرط والعدوان من الخارج . وفي ظلال هذه الحال من إيثار السلام ومداومة الاحتجاج والاستجمام ، تعددت المرافق وكثرت الأرزاق واستبحر العمران واتسعت الحضارة ، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم على تحرّى ألوان المعرفة والتطلّع إلى بعيدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبي جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية في المنطقيات والرياضيات والطب والنجوم

وكان من شأن نصرته الفرس للدعوة العباسية أن أحلّهم خلفاء بني العباس الحلّ الرفيع وردّوا عليهم اعتبارهم . لقد أدب الفرس في يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفء والعرب لا سيّد ولا مسود ، عقى الانقلاب العظيم على الفوارق ، فزالت من أمامهم العوائق وارتقوا إلى أسنى المناصب في الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتاباً ووزراء ، ومن اليهود والنصارى تراجمه وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهب القول والعمل . ولا شك في أن السياسة الجديدة التي أخذت بها الدولة العباسية في المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعاً على امتزاج الحضارات وتزاوج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيراً كبيراً ، وكذلك دخل عليهم منه شرٌّ مستطير . فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوها بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نظري أهل الهند ، وأدّاهم هذا كله إلى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عاداتهم في أول أمرهم ، من اصطناع الترف في اللبس ولما كل والاستهتار في الشرب ، والمجاهرة بما يستوجب الحد ، ومن الكلف الذي لا بعده كلفٌ بعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى في الأمور الدينية والعقائد الإيمانية

والأمثلة على ذلك في شعر أبي نواس كثيرة لا سيما شعره بعد زيارته لبغداد . فمن تماجه في شعره وتعصبه للفرس قوله في صفة دنان الخمر ومجانى الكروم :

إذا قام فيها الحالبون أنتم
بنجلاء ثقب الجوف دَرَّتْهَا الخمرُ
مسارحها الغربى من نهر صرصر
فقطر بل فالصالحية فالعقرُ
تراث أنوشروان كسرى، ولم تكن
مواريث ما أبقت تيم ولا بكرُ
ثم قوله في صفة الغناء الذى يستحبه على الشراب المعتق :

فاسقنيها وغنّ صو تأ - لك الخير - أعجبا
ليس في نعت دمنة لا ولا زجر أشاما

وقوله يتمنى لو كان الأكَسرة أحياء وكان نديمهم :

فلورد في كسرى بن ساسان روحه إذن لاصطفانى دون كل نديم
ومثلها هذه الأبيات الرائعة في صفة دار من الدور الفارسية القديمة في
ساباط ، وقد شرب فيها الشاعر وحبّه بين آثار من سبقوا من الندماء الغطافة
أبناء فارس ، ذا كراً لأيامهم ، ناظراً إلى الأطلال الناطقة بحضارتهم ، مجدداً
بالشرب فيها عهدهم :

ودار ندامى عطّوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جرّ الرقاق على الترى وأضعاث ريحان جنى ويابس
حبست بها حصى ، فجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك الحابس
ولم أدر منهم غير ما شهدت به - بشرق سباط - الديار البساس
أقنأها يوماً ، ويومين بعده ، ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا الكأس في عسجدية حبّتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهيّ تدريها بالقسيّ الفوارس

فلأخمر ما زُرَّت عليه جيوبُها وللماء ما دارت عليه القلائس
وكذلك احتفاله بيوم النيروز من الأعياد الفارسية :
يُباكرُنا « النوروز » في غلس الدجى بنور على الأغصان كالأنجم الزهر
يلوح كأعلام المطارف وشيَّة من الصفر ، فوق البيض والخضر والحر
إذا قابلته الشمس أو ما برأسه إلى الشرب أن سُروا و مال من السكر

إسقنا ، إن يومنا « يوم رام » ولِ « رام » فضل على الأيام
في رياض ربعية بكر النور عليها بمسهل الغمام
فتوشت بكل نور أنيق من فرادى نباته وتوأم
فترى الشرب كالأهلة فيها يتحسون خسروى المدام
والنيروز أو النوروز عند الفرس أول يوم من السنة الشمسية عند نزول
الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية « يوم جديد » لأنه يؤذن بمقدم الربيع
الذى يرد على الدنيا شبابها وجدتها وهو عيدهم السنوى يقضونه فى التنزه
والشرب فى الرياض . ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر
من شهور الفرس ، يذنون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ،
كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحب أن يتزيا بزيهم ويظهر للناس
أنه منهم .

ولاشك فى أن الحركة الشعبية كان لها كبير أثر فى ذلك . فقد كان
للعرب افتخار بأنهم خير أُم الأرض قاطبة ، لما نشأوا عليه من الاستقلال

والعزة والمنعة في جزيرتهم ، وللصفات والعادات التي شاعت بينهم من إكرام
الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الأنساب ، وما كان عليه الأعراب من البديهة
وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اختصوا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن
البيان ، ثم ما كان من نشأة الإسلام فيهم وانتشاره على أيديهم . وقد نقلت
هذه العصبية المتطرفة من العرب وما يلحق بها من المفاخرة المتنفجة المتكررة .
وزادها ثقلاً أنهم لم يرتضوا دعوة المفكرين المعتدلين إلى التسوية بين
المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . فلم يلبث هذا
التعنّت أن ثارت عليه نائرة غير العرب من شعوب الامبراطورية الإسلامية
فقالوا مثل مغالاتهم في الخط من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا
يهجّون أنسابهم بشيوع المرأة بين رجال عدة في جاهليتهم ، ويعدّون
مثالهم من وأدم الولد خشية الإملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ،
ويزرون عليهم جذب الأرض وبدادة العيش ، وذهابهم في المن من أجل طعام
أطعموه أو معونة بذلوها . وراحوا في الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان
عند الرومان ، وحكمة الهند وطبها ، ومنطق يونان وفلسفتها ، وعلوم مصر
وسحرها ، وصناعات الصين وفنونها ، وحضارة فارس وترّفها . وجعلوا العرب
من ذلك أقلّ الأمم شأنًا في كل شيء ، وأضعفها استحقاقًا للفتاخر .
ونحن نرى شاعرنا أبا نواس في شعره دائم التعريض بالأعراب ، والمقابلة
بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة الفارسية في حاضرها وماضيها :

دَعِ الرَّسْمَ الَّذِي دَثَرَا يَقَامِي الرِّيحَ وَالْمَطَرَا
أَلَمْ تَرَ مَا بَنَى كَسْرَى وَسَابُورٌ لِمَنْ غَبَرَا
مَنَازَهُ بَيْنَ دَجَلَةٍ وَالْأَمْرِ فَمَرَاتِ تَفْيَّاتِ شَجَرَا
بَارِضٍ بِأَعْدِ الرَّحْمَا نُ عَنْهَا الطَّلَحَ وَالْعُشْرَا
وَلَمْ يَجْعَلْ مَصَايِدَهَا يَرَايِعَا وَلَا وَجَرَا
وَلَكِنْ حَوْرَ غَزَلَانٍ تَرَاعَى بِالْمَلَا بَقَرَا
وَإِنْ شَتْنَا حَثْنَا الطَّيِّ رَ مِنْ حَافَتِهَا زَمَرَا
وَإِنْ قَلْنَا أَقْتَلُوا عَنْكُمْ يَبَا كَرِ شَرِبَهَا الْخَمَرَا
فَذَاكَ الْعَيْشُ لَا سَيِّدَا بِقَفَرَتِهَا وَلَا وَبَرَا

وهذا وصف آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التي لا تمت إلى بدو العرب بسبب ، وإنما هي من الخواضر الفارسية وطن « بني الأحرار »^(١) كما شئت العصبية للفرس أن يسموا أنفسهم :

ببلدة لم تصل كلبٌ بها طنباً إلى خباء ولا عبسٌ وذبيانُ
ليست لذهُلٍ ولا شيبانٍها وطناً لكنها لبني « الأحرار » أوطانُ
أرضٌ تبتى بها كسرى دساكره فما بها من بني الرعاء إنسانُ

(١) (إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم « الأحرار » و « الأبناء » وكانوا يعدون سائر الناس غبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم علو أيدي العرب — وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً — تعاضلهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالحاربة في أوقات شتى) كتاب الفصل لابن حزم ج ٢ ص ٩١

وما بها من هشم العرب عَرَجَةٌ ولا بها من غذاء العرب حطبان
 لكن بها جُلنارٌ قد تفرَّعه آسٌ ، وكلله وردٌ وسوسان
 فإن تنسَمَ من أرواحها نسماً - يوماً - تنسَمَ في الخيشوم ريحانٌ
 وكان مما يبغضه في العرب أنهم لا يفتنون يتفاحرون ، إلا يكن من
 العصبية القومية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، فينبهم وبين أنفسهم . فهم
 أبداً في شقاق ونقارٍ من العصبية القبلية ، لا يجتمع رجالان من قبيلتين حتى
 يقوم بينهما الفخار وينتهى بهم آخر الأمر إلى التعدي والشجار . ويقول
 أبو نواس إنه من أجل هذا يؤثر حبة الأعجام ومنادمتهم :

نادمتهم أرتاضُ في آدامهم فالفرس عدوى سكرهم محسومٌ
 متوقِّرين ، كلامهم ما بينهم ومزمنين خفاؤهم مفهوم
 ولِفارسِ الأحرارِ أنفُسُ أنفُسٍ ونخارهم في عشرة معدوم
 وإذا أنادم عصبةً عربيةً بدرت إلى ذكر الفخار تيمٌ
 وعدت إلى قيسٍ وعدت قوسها ، سُبَيْتٌ تيمٌ وجهمهم مهزوم !
 وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرّاً ، فمنطق شرهم مزوم
 لا يبدخون على النديم إذا انتشوا ولهم إذا العربُ اعتدت تسليمٌ
 وجميعهم لي - حين أقعد بينهم - بتدليلٍ وتهيبٍ موسومٌ
 هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ، وستطالعنا ثانية
 عند وصفنا لحياته في دار السلام ، فحسبنا هذا القدر منها هنا .

وأما إشاراته الدالة على اشتغال أهل العصر بعلم النجوم فغير قليلة .
ولا غرو فقد كان الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور أول خليفة قرَّب
المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه من المقدِّمين في هذا العلم نوبخت
الجوسى المنجم الذى أسلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصل بهم
« أبو نواس » أوثق اتصال . وقد تُرجمت الكتب فى الفلك وهيئاته
وأُخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلَّقوا إلى علمها .

وقصيدة شاعرنا فى مدح الوزير الشيخ يحيى بن خالد البرمكى مثال إذا
سقناه وحده فإنه يُغنى عن كل مثال بعده . قال يصف ممدوحه بالسخاء
والشجاعة :

صورة المشتري لدى بيت ثور الا	يل والشمس أنت عند انتصاب
ليس (زاوئش) حين سار أمام الح	وت والبدر إذ هوى لانصباب
منك أسخى بما تشحُّ به الأ	فس عند انتقاص درّ الحلاب
لا وبهرام تستقل به العق	رب بالليل زائداً فى الحساب
منك أمضى لدى الحروب ولا أه	ول فى العين عند ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاوئش) Zeus لفظ يونانى وهو المشتري فى الكواكب
السيارة ، ثم فى خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات .
وأما (بهرام) فهو المزيخ بالفارسية ثم فى الخرافة اليونانية إله الحرب .
ومثل ذلك قوله يصف الحر بالقدم :

تُخَيَّرَتْ ، والنجوم وقفٌ لم يتمكن منها المدارُ
وكان أصحاب الفلك يقولون إنه كان لدوران الفلك ابتداءً كان قبله ساكناً
وفي كلام أبي نواس أيضاً إلامٌ بمبادئ الطبيعيات التي كانت بسبيل
الشيوع في أيامه . فمن ذلك تصرفه في الكلام عن الطبائع الأربع التي هي
الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في قوله هازلاً يستنقى (أبا عيسى جبريل)
في الخبر :

سألت أختي « أبا عيسى » و « جبريل » له عقل
فقلت « الخمر تعجبنى » فقال « كثيرها قتل »
فقلت له « فقدّر لي » فقال وقوله فصل :
« وجدت طبائع الإنسا ن أربعة هي الأصل
فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطل »
وقوله هاجياً زهير المعنى :

قلّ زهير إذا اتسكا وشدا « أَقْلُّ أَوْ أَكْثَرُ ، فأنت مهذارُ
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج باردٌ حارٌ »
ففي ذلك التفاتٌ إلى ما كان يروى من أقوال أهل الهند أن الشيء إذا
زاد في البرد تحول إلى الحرارة بدليل أن الصندل الأبيض إذا أفرط في حركته
عاد حاراً مؤذياً .

وأخيراً يقع القارىء في شعره هنا وهناك على ألفاظ من مصطلح المتفلسفة
مثل قوله يصق ما صيره إليه تبريح العشق من النحول والضنى .

تَرَكْتُ مِنِّي قَلِيلاً مِنْ القليل أَقْلاً
يكاد لا يتجزأ أقل في اللفظ من « لا »

وقد زعموا أن إبراهيم النضام المعتزلي لما أن سمع ذلك منه قال له : « أنت
أشعر الناس في هذا المعنى . والجزء الذي لا يتجزأ ، منذ دهرنا الأول نخوض
فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت في بيت واحد » .

ولقد كثر في الحواضر الإسلامية الشكاك والدهريون ، ومروجو التعاليم
اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من الثنوية وغيرها من مذاهب الفرس ولاسيا
المانوية ، فكانوا يتصلون بالناشئة يزينون لهم المروق والاحاد ويفسدونهم .
ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذ لكان لبلاء الإسلام هؤلاء أشد
وأُنكى . ومن هؤلاء الدعاة إلى الزندقة في البصرة عبد الكريم بن أبي
العوجاء . وقد تصدَّى له شيخ المعتزلة عمرو بن عبيد فقال له مهدداً متوعداً :
« قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستنزل له وتدخله في
دينك . فإن خرجت من مصرنا (يعني البصرة) وإلا قتُ فيك مقاماً آتى
فيه على نفسك » . وكذلك تعاون وإمام المعتزلة واصل بن عطاء على المتنم
بالشاعر الأعمى الملحد بشار بن برد حتى نفى من البصرة . فلما رجع إليها عند
موت واصل سنة ١٣١ لم يزل عمرو به حتى نفى ثانية ، وظل بعيداً عنها إلى

أن مات المعتزلي في أواخر سنة ١٤٣ . ولقد كان من شيوع الزندقة ونشاط دعايتها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلها على حربها وكثرة القتال لمناهضتها ، ومن مصنفاته كتاب فيه ألف مسألة للرد على المانوية . كما أنه صمد من معتزلة الجيل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد ، ولقب بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين . وكان للعلاف بصر بالفلسفة اليونانية وكان في احتجاجاته العقلية لا يخلو من بعض الاعتماد عليها . ولعل في الأبيات التي هجا بها أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحق صورة لما كان شاعرا في أوهام الناس عن عقائد المانوية في ذلك العصر :

جالست يوماً « أبانا »	لأدرَ درَ « أبان »
ونحنَ حَصَرَ رواقِ الأ	مير بالنهرِ وان
حتى إذا ما صلاة ^(١) الأ	ولى دنت لأذان
فقام ثمَّ به ذو	فصاحة وبيان
وكلمًا قال قُلْنَا ^(٢)	إلى انقضاء الأذان
فقال ^(٣) : « كيف شهدتم	بذا ، يغير عيان ؟
لا أشهدُ - الدهر - حتى	تُعَيْن العيان »
فقلتُ : « سُبْحَانَ رَبِّي ! »	فقال : « سُبْحَانَ مَانِي ! »

(١) صلاة الأولى يعني بها صلاة الصبح (٢) كلما قال المؤذن قولاً رددناه بعده
(٣) أى فقال أبان اللاحق كيف شهدتم بقول المؤذن « أشهد ألا إله إلا الله » ، « أشهد أن محمداً رسول الله » ولستم للأمر بشهود عيان

فقلتُ : « عيسى رسولٌ » فقال : « من شيطان »

فقلتُ : « موسى نبيٌّ » قال : « مهيمٌ من المنان »

فقال : « ربك ذو مقلةٍ إذاً ولسان ؟ »

أنفسه خلقته أم من ؟ » فقلتُ مكاني

عن كافرٍ يتمرى^(١) بالكفر بالرحمن

يريد أن يتسوى بالعصبة . الخان

بعجردٍ وعبادٍ والوالي^(٢) المهجان

وقاسمٍ ومطيعٍ رِيحانةٍ الندمان

وكانت خراسان كعهدا منبت الكثير من الدعوات ومرتعاً لدعاتها .
وقد ظهر فيها في أوائل عهد الخليفة المهدي دعيٌّ من أهل مرو يسمى حكيماً ،
وكان أعور قصيراً مشنوء الخلقة ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجهاً من
ذهبٍ فتقنّع به لئلا يرى ، فلقب بالمتقنّع . وكان يدّعي الألوهية فيزعم أن الله
خلق آدم وتحول في صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا
إبليس أبى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحول في صورة نوح وهلم
جرّاً إلى أن حلّ في أبي مسلم الخراساني ومن بعده حلّ فيه . وهو يقول
بالتناسخ ، وكانت تعاليمه إباحية فتابعه ضلال الناس ، واجتمع إليه خلقٌ

(١) يتمرى بالكفر يتزين به أي يتخذ زينة

(٢) الوالي هو والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس والآخرون حماد عجرد وعبادة وقاسم
بن زرقطة ومطيع بن إياس

كثير غلب على عقولهم بالتمويهات . ولم تتمكن جيوش الخليفة منه إلا بعد عامين كاملين . وقد أطالوا حصاره وضائقوه واستلوا معظم أصحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله ، فشرب وإياهم السم ، وألقى بنفسه في النار وهو يقول « من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار » . وكان ذلك مما زاد في اقتنان من بقي من أصحابه . وبلغ من شيوع الزندقة في خراسان وفارس والعراق في أواخر أيام المهدي أن ضاق صدر الخليفة وفارقه صبره واضطرم غيظه ، فجدد في طلب الزنادقة وولى أمرهم « عمر السكواذي » ليفرغ لهم ويمعن في البحث عنهم في الآفاق لينكل بهم شر تنكيل ، ولما مات ولى مكانه « محمد بن عيسى المعروف بمخدويه » .

ويخلص من هذا جميعه أن حركة الزندقة كانت من الشدة بحيث دعت إلى مقاومتها بقوة السيف وقوة الحججة . وكان المهدي صاحب هذه الخطة المزدوجة . وفي ذلك يقول المؤرخ المسعودي : « إن المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنيين عن الدين لظهورهم وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنّف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد مجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية . فكثّر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف

الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين »
 وكان أبو نواس ممن اشتهوا الكلام وجالسوا المتكلمين . ولكنه لم ينفذ من ذلك ما أفاده غيره ، فإن هذا العلم إن يكن بإضافته شواهد المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعض إيماناً على إيمان ، فإن تعرض مثل شاعرنا لهذه الموضوعات مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة قد أداه الى شيء من الزندقة . ولقد أقر على نفسه بها في هجائه لإبراهيم النظام المعتزلى :

قولا لإبراهيم قولاً هترا غلبتني زندقة وكفرا

ولقد استمر الجدل بين القائلين باختيار الإنسان لأفعاله ، وحرية إرادته لها وقدرته عليها ، وهم المعروفون بالقدرية ، وبين الذين لا يثبتون للإنسان فعلاً ولا قدرة على الفعل ، ويضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجبرية . وهو جدال ذو خطر كبير لا اتصاله بالعدل الإلهي من حيث التكليف ثم الحساب . ولقد أعيت أبا نواس متابعتهم ، فلم يلبث أن وقف من البحث عند حد التجربة المادية والمشاهدة الحسية في قوله :

يانظراً في الدين ما الأمر ؟ لا قدر صح ولا جبر

فما صح عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموت والقبر

وحسب القارى في زندقته شهادة فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعرى إذ يقول في رسالة الغفران : « ولا أرتاب في أن وعيلاً كان على رأى

الحكمي (أبي نواس) وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة »
وفي موضع آخر منها « وقد اختلف في أن أبا نواس ادعى له التأله ، وأنه كان
يقضى صلوات نهاره في ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه »
على أن أبا العلاء على عادته في التشكك وعدم الجزم يقول في نفس الرسالة
« وذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن
قبله ووصفهم بالزندقة . وسرائرُ الناس مغيبة وإنما يعلم بها علام الغيوب »
وأيّا كان الرأي ، فإن الواقع أن شاعرنا لم يكرر القول في هذه الموضوعات
ولم يجعل الكلام فيها من أغراض شعره كأبي العلاء ، بل تحرز ما استطاع
من أن يذهل فيها عن نفسه عملاً بوصيته لغيره :

مُتْ بَدَاءَ الصَّمْتِ خِيَرْتُكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْجَمَ فَأُهْ بَلْجَامِ

على أنه مع ذلك كان لا يملك لسانه من الخروج عن حد الأدب والمساس
بحرمة الدين وهو في حالة سكر أو في سياق مجنون .

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ
الحديث بالبصرة ، إذ أقبل ذات يوم الى مجلسه وقد كثر عليه أصحاب الأحاديث
ليسألوه عنها . فقال لهم : « ليسأل كل رجل منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة
وليمض » . ففعل الناس ذلك ، حتى انتهى الى أبي نواس ، فقال : « سَلْ يَا فَتَى »
فقعد بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كان الجمار عند شاعرنا فأسمعه هذه الأبيات ، فلما بلغ الى البيت الأخير ، قال له الجمار : « ياهذا ، إن لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله في نفسك ، ودع الإفراط في المجون ، واكتمها » . فقال أبو نواس : « لا والله ، لا أكتمها خوفاً . وإن قضى شئى كان » . فتمنى الخبر الى الوزير الفضل بن الربيع ثم الى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا إلا أسبوع حتى حبس .

بيد أن أبا نواس مع ما كان يلقاه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طوال حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه ، مثل قوله :

اسقنيها ملاً وفاً لا أريد المنصفاً
وضع الزق جانباً ومع الزق مصحفاً
واحسن من ذا ثلاثة واتل من ذاك أحرفاً
خير هذا ، يشتر ذا ، فإذا الله قد عفا

وهذا كله لا يجب أن نأخذه على الشاعر مأخذ الجد ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو . وقد ألقى أبو نواس في سجن الزنادقة للمرة الأولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقى فيه حماد عجرد فقال في وصفه : « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لجونه في شعره ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرءون به في

صلاتهم » . ولا شك عندنا في أن القارى لهذا الحديث يستشعر منه استنكار
الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد مجرد حقيقة لا هو . وأكبر الظن
أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيدة ، وإنما كان يظهر الزندقة تظرفاً .
وليس هو في ذلك نسيج وحده بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح
العصر . وليس أدل على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن مناذر في محمد
ابن زياد :

يا بن زياد ، يا أبا جعفر !	أظهرت ديناً غير ما تخفى
مُزَنِّدٌ الظاهر باللفظ في	باطن إسلام فتى عَفَّ
لست بزندق ، ولكنما	أردت أن تؤسم بالظرف

الحب الأول الآخر

كل جنس مدفوع إلى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية
الأمرة التي أودعها خالق النسم كل نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . وإذا
كان أمر من الأمور في غنية عن البيان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على
الأحياء من سلطان . ولا بدع فهي صاحبة الشأن الأول في نظام الوجود ،
وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الإنسان الأولية ، ثم لا يست أولى شعائره
الدينية .

فهذه الغريزة عميقة أيما عمق ، وعامة كل العموم ، وهي تشغل حيزا
كبيرا من اهتمام الإنسان وإن يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل
وهي بعد مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كيانا الحسى والعاطفى
والروحى . وهذه العوامل متجاوبة فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثرة
متأثرة ، وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة ، كما أن المغلوب لا يبرح على كل
حال حتى الجذوة كامن القوة

والصبي إذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد

يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسةً يُشبع بها هذا السعار الجنسي ويرفه من ضغطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسديةً على حالها ، فإن كثافتها لتلطف ، وإن حواشيها لتتلون بألوان الطيف ، وتسر بل أعطافها بأبراد الخيال ووشى الشعر . وذلك إلى أن المرء له إلى كيانه العميق السفلى كياناً رفيعاً علوي ، يقتضى التعاطف بين قلب وقلب ، والتوافق بين مزاج ومزاج . وهذا التجاذب الخفى بين الأرواح مما يهون على العشاق تباريح الهوى ولوعة الحرمان ، ويجعل أنفسهم أطيب ما تكون بالبذل والمفاداة وإنكار الذات

على أنه لن تفتأ بين هذا الأفق السماوى وذلك التراب الأرضى صلة غير مقطوعة ، كالزهرة أصولها مطمورة فى حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظة ما تزكو به الزهرة

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء بعد كل وجبة . فإذا ما ترقى بها الإنسان إلى الحب كان شوقه دائماً ، فليس هو بالذى تشبع نهمته وتُنقع غلته ، بل لعله مع القرب أبقي شوقاً وأشدّ هياماً على حد قول ابن الرومى :

أعاقبها - والنفس بعد مشوقة	إليها - وهل بعد العناق تدان !
وألثم فاها ، كي تزول حرارتى	فيشتد ما ألقى من الهيام
وما كان مقدار الذى بي من الجوى	ليشفيه ما ترشف الشفتان

كَأَنَّ قَوَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سَوَى أَنْ يَرَى الرُّوحِينَ تَمْتَرِجَانِ
وهذه الصورة أصح مثال على الحب في حده الطبيعيّ السليم . فليس فيه
إنكار الزَّهَادَ للجسد وانصرافهم عن ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق
المتصوفة إلى ما وراء الحسّ وحنينهم إلى الاتحاد بالروح والفناء في المحبوب .
وما كان شاعرنا أَبُو نَوَاسٍ على استهتاره كسائر الخلعاء الجَّانِ في اللهو
والشراب ومصادقة الفتيان ، بالذي يخرج وقد بلغ مبالغ الرجال عما للحب
الطبيعيّ بين الجنسين من غلبة على الحسّ وسلطان على النفس .

فاتفق له أَنْ كَانَ فِي الْمَرْبَدِ جَالِسًا مَعَ شَبَابٍ مِنْ آلِ ثَقِيفٍ يَتَزَهَوْنَ وَهُوَ
يُنْشِدُهُمْ مِنْ أَشْعَارِهِ ، إِذْ مَرَّتْ بِهِمْ جَارِيَةٌ أَفْرَغَتْ فِي قَالِبِ الْجَمَالِ ، سَوِيَّةَ
الْخَلْقَةِ بَدِيعَةِ التَّقْطِيعِ ، مِيسَاءَ مَعْتَدَلَةِ الْقَوَامِ .

فوق القصيرة ، والطويلة فوقها دون السمين ، ودونها المهزولُ
وقد أبرزت عن وجهه وضّاح ، أزهَرُ اللَّوْنِ ، رَفَافُ الْبَشَرَةِ ، حُلُوُ الْمَلَامَحِ ،
عَبْقَرَى الْمَعْنَى . فجعل ينظر مأخوذاً إلى ذلك المنظر الرائع والحسن البارع
وهي ماضية في طريقها لا تلتفت ، قاصرة الطَّرْفِ ، مسبلة الأهداب .
وما زال يُتَبِعُهَا نَظْرَهُ إِلَى أَنْ غَابَتْ عَنْهُ . فقال له أصحابه : « خَرَجْتَ عَنْ
حَدِّكَ الَّذِي كُنْتَ تَنْتَسِبُ إِلَيْهِ يَا أَبَا نَوَاسٍ » يشيرون إلى ما عرف عنه من
الغزل بالمدح . فسكت لحظةً لَا يَحْيِي ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

إِنِّي صَرَفْتُ الْهُوَى إِلَى قَمَرٍ لَا يَتَحَدَّى الْعَيُونَ بِالنَّظَرِ

إذا تأملتَه تعاطمَكَ الـ إقرارُ في أنه من البشر
ثم يعود الإنكارُ معرفةً منك إذا قستَه إلى الصُّورِ
مباحةٌ ساحةُ القلوبِ له يأخذ منها أطيبَ الثمرِ

وبقى بينهم ساهماً سحابةً نهاره ، حتى إذا أظلم المساء استعجل العودة
إلى بيته ليخلو إلى نفسه . لقد انطبعت هذه الصورة العابرة في قلبه بخطوط
من نور ونار ، ولن تفارقه في ليلٍ ولا في نهار . وهيئات بعد اليوم أن يطيب
له نومٌ أو يقرَّ له بال . إن أبا نواس اليوم غير أبي نواس الأمس . هذا الرجل
الواقعي المستغرق في الحسِّ ، والماجن المستهلك في اللهو والسكر ، والخلَّى الذي
لم يعرف الحبِّ ، قد شُغف اليوم حبًّا ، وأصبح بخيال هذه المرأة مستهماً
صبًّا . فليس شيء من مفاتن الحياة يشغله عن التفكير فيها ، وهو ينظم
الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجدَّه بها وحنينه إليها وهو لا يعرفها .
ولقد طال سؤالُ أبي نواس عنها وتنسُّه لأخبارها وجلية أمرها ، فلم يقع بعد
اليوم الذي رآها فيه على خبرٍ منها . فما أحالَه ذلك عن قصده ولا حبس من
عنانهِ وصرفه عن هواه . وكان يقول لمن يلحاه في لجج حبه ودأبه في طلبه :
كما لا ينقضى الأربُّ كذا لا يفتر الطلبُ

وتناقل أهل البصرة حال شاعرنا في حبها وأقواله فيها وأكثرها ذكره
في كل محفل ومجمع .

ولم تكن هذه المعشوقة المجهولة إلا « جناناً » جارية آل عبد الوهاب

التقى ، وقد انفتحت الأقوال على أنها كانت مقدودة حلوة بدیعة الحسن ،
أديبة ظريفة عاقلة ، تعرف الأخبار وتروى الأشعار . كما انفتحت الأقوال
على أن أبا نواس لم يصدق في حب امرأة غيرها .

ولقد ذكرت لها نساء من صواحبها ، وزين لها أن يخرجن فيعبثن به
ويعارحنه . فخرجن يوماً وأبو نواس على غفلة من ذلك حتى وافينه . فلما
راها كاد عقله يذهب ، وتحيّر ، وأقبل وأدبر ، فدنّت منهن واحدة إليه .

فقلت — « يا فتى ، أنت أبو نواس ؟ » .

فقال لها متلهفاً — « نعم ، أنا المعنى بمن لا تترثنى لشكايتي » .

فقلت كلمتهكمة — « بالله أنت عاشق ؟ » .

فلم يمهلهما وبادر مؤكداً — « إى والله ! » .

فتضاحكت — « لمن ؟ » .

فأطرق مردداً — « لمن لا يعلم ما بى ، ولا أعلم من هو » .

فقلت في خبث — « فاجعنى رسولاً إليه ، فلعن الله أن يمنّ على

وعليك » . فأقبل عليها يقول : « هى والله التى معك » وأوماً إلى جنان .

فانصرف عنه إلى جنان وهى تضحك . فأعلتها بما دار بينها وبينه .

فأنكرت ذلك عليها وقالت : « مثل هذا الكلب تطمعيه فى » وتولّت
مغضبة .

واتبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ، وسأل عن اسمها

فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضياً عن يومه ، قائلاً بما وصل إلى علمه ، وهو
يترنم « تبدت لنا كالبدر وسط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه
الواقعة ، وصوّر لنا إقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة البصرة في أتم
زينته ، يخففن بجنان كالتماثيل الحسان ، وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضّمخات بالغب يرزلن من غرَف الجنانِ
راضعتهنّ من الصبا كأساً عقدن بها لساني
أقبلن من باب الرضا فة كالتماثيل الحسان
يخففن أحور كالغزا ل أمرٍ إمرار العنان
يمشي بردف كالنقا يختال تحت قضيب بان
فاذا انجلتِ خجالي كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرف بآل عبد الوهاب الثقفي ، فعاشرهم ونادهم
توصلاً لجنان . ولعل ذلك عن طريق صداقته لابن مناذر الشاعر الذي كانت
المودة بينه وبين عبد الحميد بن عبد الوهاب الثقفي مضرب المثل ، وكان أحدهما
لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل في ذلك أنهما كانا يسمران أحياناً إلى
الصبح ، فاذا انصرف عبد الحميد شيعه ابن مناذر إلى منزله ، فاذا بلغه
وانصرف ابن مناذر شيعه عبد الحميد .

ولقد تكلف أبو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ، ثم طفح به
الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاقت صدره ، وصار كالمغلوب على أمره يؤوده
أن يمسك على ما في نفسه :

لَا يَبْحَنُ حَرَمَةَ السَّكْمَانِ رَاحَةَ الْمُسْتَهَامِ فِي الْأَعْلَانِ
 قَدْ تَصَبَّرْتُ بِالسَّكُوتِ وَبِالْإِطْ رَاقَ جَهْدِي فَنَمَّتِ الْعَيْنَانِ
 تَرَكْتَنِي الْوَشَاةُ نَصَبَ الْمَشِيرِ نَ وَأَحْدُوثةً بِكُلِّ مَكَانِ
 مَا أَرَى خَالِيَيْنَ لِلْسَرِّ إِلَّا قُلْتُ مَا يَخْلُوانِ إِلَّا لِسَانِي
 ثُمَّ أَنْشَأَ يَشَبُّ بِاسْمِهَا وَيُظْهِرُهُ حَتَّى عُرِفَ بِهَا وَاشْتَهَرَ بِجَبَّهَا . وَمِنْ إِيَّاهُ
 إِلَى اسْمِ « جَنَّان » وَصَفَتْهَا قَوْلُهُ :

لَمَّا تَكشَّفَ عَنِّي أَنْتَى كَلِفٌ كَشَفْتُ أَيْضاً لَهُمْ عَمَّنْ بِهِ السَّكْفُ
 جِيمٌ وَجَدْتُ لَهَا نَوْنَيْنِ ، بَيْنَهُمَا - لَمَنْ تَهَجَّجِي اسْمَهَا أَوْ خَطَّهْ - أَلِفٌ
 يَضُمُّهُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُ دَوْرِهِمْ مَا بَيْنَكُمْ بَعْدَ ذَا التَّبْيَانِ مُحْتَلَفٌ
 وَاتَّقِ أَنْ تَزُوجَ عَمَّارَةَ بِنْتَ عَبْدِ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيِّ بِرَجُلٍ مِنْ ثَقِيفٍ يَدْعَى
 مُحَمَّدَ بْنَ خَالِدٍ ^(١) فَصَارَتْ إِلَيْهَا جَنَّانٌ وَصِيفَةٌ لَهَا . وَكَانَتْ مَوْلَاةَ جَنَّانٍ مُوسِرَةً ،
 وَعَلَى حَظِّ وَافِرٍ مِنَ الْجَمَالِ كَأَخِيهَا عَبْدِ الْجَبِيدِ الَّذِي قِيلَ إِنَّهُ كَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ
 وَجْهًا وَأَدَبًا وَمَلْبَسًا . فَلَمْ تَزَلْ تَعْرِرُ بِهَا امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا « سُرُور » حَتَّى ارْتَضَتْ
 الرَّجُلَ وَهُوَ أَبُو أَوْلَادٍ خَمْسَةٍ ، ثُمَّ هُوَ فَوْقَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهَا كَفْوًا ، بِالنِّسْبَةِ
 لَجَلَالِ قَدْرِ أَبِيهَا عَبْدِ الْوَهَّابِ وَمَوْضِعِهِ مِنَ الْعِلْمِ ، وَمَا لَأَمَّا « بَانَةُ بِنْتُ أَبِي

(١) جَاءَ فِي الْأَغَانِي فِي الصَّفْحَةِ ٧٧ مِنْ الْجُزْءِ ٢ أَنْ عَمَّارَةَ تَزُوجُهَا مُحَمَّدَ بْنَ خَالِدٍ وَجَاءَ
 فِي الصَّفْحَةِ ٣ مِنْ الْجُزْءِ ١٨ أَنْ زَوْجَهَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّقَفِيِّ . وَقَدْ أَخَذْنَا بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ
 يُطَابِقُ مَا جَاءَ فِي شُعْرِ أَبِي نَوَاسٍ . وَأَمَّا الَّذِي وَرَدَ فِي الصَّفْحَةِ ٤ مِنْ الْجُزْءِ ١٨ مِنْ أَنَّ
 عَمَّارَةَ امْرَأَةَ عَبْدِ الْوَهَّابِ فَهُوَ خَطَأٌ صَرِيحٌ وَصَحَّتْهُ ابْنَةُ عَبْدِ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيِّ .

العاصم الثقفي « من بسطة الثروة ، فضلا على أنه لم يكن هواه فيها وإنما الشره إلى ما في يدها .

ولقد شاء لمحمد بن خالد حفظه العاثر أن يكون جاره أبان اللاحق الشاعر وأن يكون عدوا له ، فنظم في موضوع زواجه بعمارة قصيدة يهجو فيها ويحذر بها منه ويحفظها إلى مفارقتها :

لما رأيتُ البزَّ والشاره	والفرشَ قد ضاقت به الحاره
واللوزَ والسكرَ يُرْمَى به	من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا الملهين لم يتركوا	طبلاً ولا صاحبَ زماره
قلت «لماذا؟» . قيل «أعجوبة»	محمدَ زُوجَ عمّاره ! «
لا عمرَ الله بها بيتَه	ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأيت فيه؟ وماذا رجت؟	وهى من النسوان مختاره
أسود كالسفود يُنسى لدى الـ	تنّور ، بل محراك قياره
يجرى على أولاده خمسة	أرغفة كالريش طياره
وأهله في الأرض - من خوفه	إن أفرطوا في الأكل - سيّاره
ويحك ! فرّى واعصبي ذاك بي	فهذه اختك فرّاره
إذا غفا بالليل فاستيقظي	ثم اطفري إنك طفّاره

ويقال إنه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هذه عمارة ، فعلت في نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ، فحرم من جهةها مالا عظيما .

وكان زوج عمارة هذا بخيلاً شديداً البخل ، حريصاً غاية الحرص ، فيه
أثرة وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهل الأدب ، فليس لأبي نواس
أو غيره من الشعراء اتصالٌ ببابه أو سبيلٌ إلى قلبه . فلا جرم يستولى على
عاشق جنان عارض اليأس وشعور القهر :

رأيت هواي سيرته الوجيف وتحزبني إذا اعترضت ثقيفُ
فإن آتَى - وذلك بعد كدٍ - فدارُ « محمد » ثم الوقوف

ولقد زاد محمد أن عمد إلى بسط لسانه في أبي نواس والتسميع بمثالبه
وعوراته . فلم يسع العاشق إلا السكوت والإغضاء كرامةً لهوى جاريته
الحسنة :

سأترك « خالداً » لهوى جنانٍ وإن جلّ الذي عنه أثنائي
فقلّ من بعد ذما شئت ، أوزدُ فقد أُمسيتَ مني في أمانٍ
لقد أغلقتَ بابك دون ظبي ختمتَ بمقلتيه على لساني

ثم إن هذه المبالغة من مولى جنان في سترها والغيرة عليها غيرة لم تؤثر
عنه على زوجه ، ألفت في روع الشاعر أن مولاهما إنما يفعل ذلك لأنه يهواها :
مولى جنان وإن أبدى تجلده يهوى جنان فيرجوها ويخشاهما
مولاته هي « بالمعنى » وحق لها ، والناس يدعونه « باللفظ » مولاهما
وكانت جنان مع هذا التضيق عليها لا تخلو من الغدو والروح لحاجتها
وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة . وكان أبو نواس راصداً لها حيثما

ذهبت . فإذا شهدت عرساً لم يزل جالساً حتى تنصرف منه فيراها في ذهابها
ومنصرفها . وكان لا يراها إلا امتقع لونه ووثب قلبه في صدره لما يبدو من
جمالها في الحل والحلل حتى لكانها العروس :

شهدت جلوة العروس جناناً فاستالت بحسبها النظارة
حسبوها العروس حين رأوها فإليها دون العروس الإشارة
قال أهل العروس حين رأوها : « ما دهانا بها سوى عمارة »
ويصور لنا أبو نواس في هذه الأبيات ما هو ملحوظ إلى أيامنا من
حرص النساء على عرض جمالهن في الأعراس كأنما يعارضن العروس ويغائرنها .
ولقد صور الوهم له في هذا الشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره
من جنان ، ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيداً من جهتها وعمداً .
ويروى أن جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه كان معنا ، هكذا كانت
والله الصفة »

وكان لا يدع فرصة لرؤيتها إلا اغتنمها حتى في المآتم . فلما مات بعض
آل عبد الوهاب الثقفي ، أشرف أبو نواس من دار على منزل الثقفين وعندهم
المآتم ، ليرى جنانا . وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفي يدها خضاب ،
فلم يعنه من هذا المنظر الفاجع الأليم إلا النظر إليها سافرة الوجه كالبدر ،
واستملاح هذا المتبائر المتحدّر من دموعها كاللؤلؤ الرطب من عينين نجلاوين
لها كعيون النرجس ، واستظراف بنانها المخضوب كالعنّاب يواقع وهي تلتدم
خدين كالورد :

ياقرأ أبرزه ماتم يندب شجواً بين أتراب
 يبكي فيذكرى الدرّ من نرجس ويلطم الورد بعناب
 لا تبك ميتاً حلّ في حفرة وابك قتيلاً لك بالباب
 وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ، سواء أكان
 خروجها الى عرس أو ماتم ، وقد لقيها أبو نواس مرةً خارجةً الى بعض
 المآتم بالبصرة وعليها قناعٌ وشي رقيق . فاتبعها واحتال على شهود المآتم .
 فلما حسرت في المآتم عن وجهها ذهل الشاعر - كدأبه - من حسننها ، وخيل
 إليه أن المآتم كله قد ذهل مثل ذهوله . وقال فيها :

يامنسى المآتم أشجانهم لما أتاهم في المعزينا
 حلت قناع الوشي عن صورة ألبسها الله التجاسينا
 فاستفتتنهن بتمثالها فمن للتكليف يبيكيننا
 حقّ لذلك الوجه أن يردهى عن حزنه من كان محزوننا

واشتد وجد أبي نواس بها ، فاشتد في طلبها ، وصارت شغله الشاغل لا
 شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها ينظر إليها بمجامع عينيه إذا أقبلت
 ويتبعها أينما توجهت ، ويقعد لها حتى انصرافها . وكان قد يشرب أحياناً
 أقداحاً من النبيذ ليشدّ قلبه ويسكن ما به ، فلا يجسر مع ذلك على أن
 يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوماً إلى مولاها ، فشكاه إلى بعض إخوانه وسبه عندهم

ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما اتصل ذلك بالشاعر قال على مذهبه في هذه
الفترة في الملاينة والمسألة .

مَنْ سَبَّيَ مِنْ ثَقِيفٍ فَاَتَى لَنْ أَسْبَهُ
أَبَحْتُ عِرْضِي ثَقِيفًا وَلَطَمَ خَدِي وَضْرَبَهُ
وَكَيفَ يُنْكِرُ هَذَا وَفِيهِمْ لِي أَحِبُّهُ ؟
لَا وَسِعَنَ بِحَامِي عَبْدَ الْحَبِيبِ وَكَلْبَهُ
وَلَا أَكُونُ كَمَنْ لَمْ يُوسِعْ لِمَوْلَاهُ قَلْبَهُ
فَقَامَ يَدْعُو عَلَيْهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ حَسْبَهُ !!

وعند أبو نواس إلى رسول أوفدها مرة إليها ، فقالت جنان لها منكراً :
« واضيعته ! لم يبق لي غير أن أحب هذا الكلب ؟ » وذكرته بالتقبيح
والتهجين . فجاءته الرسول متغيرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

كَسَرَ الْحَبُّ نَشَاطِي وَلَقَدْ كُنْتُ نَشِيطًا
جَاءَنِي عَنْهُ كَلَامٌ زَادَنِي فِيهِ قَنَوطًا
« وَاضِيَاعَاهُ ، أَمْثَلِي يُرْتَجَى فِيهِ خَلِيطًا ؟ »
لَوَأْرَدْتَ الْوَصْلَ لَمْ تَجِ لَبَّ مِنْ الْفَخْرِ شَرْطًا
قَدْ رَأَيْنَا عَرَبِيَّاتٍ يُوَاصِلْنَ نَبِيطًا

وكان أبو نواس على شغفه بجنان وعلى صدق حبه لها ، دون من كان
يشبّه بهن من النساء ، غير محدود منها . وكانت كلما ذكر اسمها عندها سبته

وقالت : « فعل الله بالخنث الكاذب في حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هذه الإساءات بأقوال له ، منها :

جنان تسبني - ذكرت بخير - وتزعم أنني مدق خنيث
وأن مودتي كذب ومين - وأني للذي أهوى بثوث
ولي قلب ينازعني إليها - وشوق بين أضلاعي خيث
وقوله :

أتاني عنك سيك لي فسبي أليس جرى فيك اسمي ! فحسبي
تشابهت الظنون عليك في ذا ، وعلم الغيب فيه عند ربي
وزالت عن هذا الماجن وقاحته واستظلمته ، فاستخذى وركبه الحب
بالذلة وعلمه الخضوع والخنوع . كما زالت عنه شهوته للحياة وافتتانه بالدنيا ،
فهو لزهد جنان فيه قد زهد في ملاذ الدنيا وكان لا يصبر عنها ، وهو خلوا
حياته منها قد كره الحياة ولم تبق به حاجة إليها .

زهدت جنان في الذي رغبت إليها فيه نفسي
فرهدت في الدنيا وصا رت منيتي في زور رمسي
وطويت عيني أن ترا في عينيها ، وأمت جرسي
كيلا يروّع ذلك الـ وجه المليح سماع حسني
وطال على أبي نواس البلاء حتى لزمه الأرق وكاد يجن من الحب :
تناومت جهدي فلم أرقد ونام الخلى ولم يسهد

وأنهض في طرباتٍ تهيبُ ، وألزم طوراً فؤادى يدى
ولقد يهتف به داعى العقل أن يعدل عن هذا العشق الذى لا مطمع
من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعْ جَنَانًا وَحَبَّهَا عَنكَ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا
لَا تَذْكُرْ بِنَفْسِكَ إِيَّاهُ مَوْتَ إِنْ كَانَ غَافِلًا
أَنْتَ إِنْ لَمْ تَمُتْ بِهَا إِيَّاهُ حَافِلًا لَمْ تَنْجُ قَابِلًا
رُحِمَتْ نَفْسُكَ الَّتِي ذَهَبَتْ عَنْكَ بَاطِلًا

ولكن هيئات أن يعدل عن حبها، إنه كالقضاء لا مفر منه ولا نجاء. ولقد
علمه حبها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد أن امتنع الصبر وعزّه الرجاء :

أَيَا مُلَيْنَ الْحَدِيدِ لَعِبْدِهِ دَاوُدَ
أَلَيْسَ فُؤَادُ جَنَانٍ لِعَاشِقٍ مَعْمُودِ
صَبِّ حَرِيضٍ مَهِيضٍ نَاءِ طَرِيدٍ شَرِيدِ
حَرَّانَ يَدْعُو بَلِيلٍ يَا لَوَحِيدِ الْفَرِيدِ !

وظاهر من هذا كله أن جنان لم تكن مثل سائر جواري العصر ماجنة
وقاح الوجه ، متهتكة ، بل هى كما وصفنا فتاة عاقلة رزان ، عفيفة حصان
خفيرة قليلة الكلام ، وذلك كله مع جمال الحياء وحلاوة الملامح ولطافة
التكوين والقوام وحسن اللبسة والهندام . فالشاعر لا يبنى يجمع فى صفتها أنها
نزهة طرف وفطنة قلب ، وأنها ممتنعة لا تلين لمريدها ولا تقرب لما يصنع بها .

وجه جنانِ سرّاةِ بستانِ مجتمعٌ فيه كلُّ ألوانِ
مبدولةٌ للعيونِ زهرتهُ ممنوعةٌ من أناملِ الجانيِ
لستُ أحظى به سوى نظري يشركني فيه كلُّ إنسانِ

ولقد أشار الشاعر الى أن لها جمالا « غير معرب » في ختام أبيات له
من أمتع وأطبع ما قاله شاعر في وصف « الجمال » في أبدع مجاليه وأعجب
معانيه، وهو ذلك الجمال الذي لا يزال في عينك يتجدد، يطالعك منه بمحاسن
ليست تنفد، وكأن بعضها ينتهي وبعضها يتولد، ثم هو كلما عاودت النظر
إليه كان بالعود أحمد :

وذا ت خذٍ مورّد فتانة المتجرّد
تأمل الناس فيها محاسناً ليس تنفد
الحسنُ في كل جزء منها معادٌ مردّد
فبعضه في انتهاء وبعضه يتولد
وكما عدت فيه يكون بالعود أحمد
فاشرب على وجه بدرٍ ريان غير معرب

ومضى الشاعر يشبب بها ويلهج بكرها، ويشكو في شعره ما يجد بها
وما يلقى في حبها، ولا مسألة له إلا عنها، ولا حديث له إلا حديثها، حتى
عذله الناس في ذلك :

أما يفتني حديثك عن جنانِ ولا تبق على هذا اللسان ؟
أكل الدهر قلت لها وقالت ؟ فكم هذا ! أما هذا بفان ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرهاً له نافراً منه ، بل كان
يحمده لهم أحياناً ويستأنس به من الوحشة إليها ، لما يرد عليه في عذلم من
ترديد اسمها والإلام بذكرها :

إذا ما عاذلى سماً لك قلتُ أعدْ ، كذا أعد
وشب لي باسمها عدلى وزدني ، ثم زد وزد
نهارى كله وغداً وبعد غد وبعد غد

وقد كانت جنان كأحرّ الحرائر من النساء تتخرج من قول الشعراء فيها
والغزل بها والتصريح باسمها. وقد انتهى الى الشاعر كرهاً لذلك ، فقال معتذراً :

طفلةٌ كالغزال ذات دلال فتنة في النقاب والإسفار
أتمنى وما بكفى منها غير مظل وغير سوء انتظار
ثم قالت « جهرت باسمي في الشع » ر فهلا كنييت في الأشعار «
قلتُ « إن الهوى إذا كان بالص ب وهى قلبه عن الأسرار
أنا جارٌ لكم قريب ، ولكن ليس يُغنى لديك حق الجوار »

ثم استخفه الوجد ولج به الحنين واهتاجه الشوق إليها ، فصاح صيحته :
جنانُ إن جُدتِ يأمناى بما أمل لم تقطر الساء دماً
وإن تماريتِ أو تماريتِ في منعك أصبح بققرة رما
علقت من لوأتى على أنفس ال باقين والغابرين ما ندما

ولقد فعلت هذه التوسلات في نفس جنان واستمالتها ، فصارت أميل
لناحيته بعد نبوّها عنه . ولقد صرت به امرأة ممن تداخل التقيين ، فسألها

عنها وألحف في المسألة واستقصى ، فأخبرته الخبر ، وانسأقت إلى المبالغة والتزديد فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطار القلب مهتز الأوصال من الفرح فقالت : [قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم أني أسمع : « ويحك ! قد آذاني هذا الفتى وأبرمني ، وضيق علي الطريق بحدة نظره وتهتكه . ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبي بذكره والفكرة فيه حتى رحمته » ثم التفتت فرأيتني فأمسكت عن الكلام] .

وصدق أبو نواس الخبر واعتقده بنصه وحرفه ، ولم ير فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قول مصنوع أو زيادة موضوعة . ولما قامت المرأة أنشأ يقول :

يا ذا الذي عن جنان ظل يخبرني بالله قل وأعد ياطيب الخبر
قال : « اشتكتك وقالت : ما بليت به ! أراه من حيثما أقبلت في أثرى
ويعمل الطرف نحوى إن مررت به حتى يخجلني من حدة النظر
وإن وقفت له كما يكلمني في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه حتى لقد صار من همي ومن وطري »

واتصلت الرسائل بينهما حيناً . وكان من لهفته يتطلع في وجه الرسول عند عودته ولا يمله ، ليسبق باللحظ والتوسم إلى ما يحمل له ، شراً أو خيراً ، قبل اللفظ به . ثم إنه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليمتلئ ساعة بالنظر إلى الموفد إليها . ويغلو به الوهم في ذلك حتى يجد رسوله عند الإياب من لديها أحلى طاعة وأجل نظرة ، فيقول :

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا ، فَقَدْ سَعِدْتُ عَيْنَ رَسُولِي وَفُرْتُ بِالْخَبَرِ
فَكَلِمًا جَاءَنِي الرَّسُولُ لَهَا رَدَّتْ شَوْقًا فِي طَرْفِهِ نَظْرِي
تَظْهَرُ فِي طَرْفِهِ مَحَاسِنُهَا قَدْ أَثَرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثَرِ
خُذْ مَقْلَتِي يَا رَسُولَ عَارِيَةٍ فَانْظُرْ بِهَا وَاحْتَكُمْ عَلَى بَصَرِي

ومن شهود هذه الوفادات ، والرسل المختلفة بينهما غايات راحات ، شيخٌ
جليلٌ هو الشيخ محمد بن حفص بن عمر التميمي (أبو ابن عائشة) وهو
وقتئذٍ يتولى القضاء بالبصرة ، وكان منصرفاً عن المسجد فرأى - فيما بين دار
أبان ودار حُمران - فتىً لَبِقًا ، دُمًّا ، عليه ثيابٌ بيضٌ حسان ، وعلى رأسه
قلنسوةٌ مضرَّبةٌ ، واقفاً مع امرأةٍ يكلمها . فدنا الشيخ منه وقال له : « يا هذا
إن كانت هذه المرأة منك بسببٍ ، فقد عرَّضتها للهمة ووقفها موقفَ سوءٍ
وإن كانت غريبةً عنك فحقيقٌ عليك اتقاء الله وألا ترضى لغيرك إلا بما
رضيته لنفسك » . فالتفت الفتى إلى الشيخ الذي يخاطبه ، وقال على الفور في
أدبٍ وظرفٍ : « القول ما قلت ، وأنا قابلٌ نصيحتك وغيرُ عائدٍ إن شاء
الله تعالى » . فوالى القاضى وجهه في طريقه يفكر في أمر الفتى فلا يدرى أىَّ
شئماله يستحسن ، أسرع جوابه ، أم حسن مراجعته له بقلة الخلاف ، أم
ظرف لسانه . ثم دخل القاضى فى المسجد الجامع وجلس ساعةً للقضاء والنظر
فى المظالم ، فلم يشعر إلا بركة فى الرقاع بين يديه وكان الذى جاء بها ابن
عائشه ولده . فتناولها ، وإذا فيها :

« يقول لك أبو نواس :

إِنَّ التِّي أَبْصَرْتَهَا سَحَرًا تَكَلَّمَنِي رَسُولُ
لَيْسَتْ هِيَ الْقَصْدُ الَّذِي يُؤْمِي إِلَيْهِ وَلَا السَّبِيلُ
أَدَّتْ إِلَى رِسَالَةٍ كَادَتْ لَهَا نَفْسِي تَسِيلُ
مَنْ سَاحَرَ الْعَيْنَيْنِ بِحِجْ ذَبْ خَصْرَهُ رَدْفٌ ثَقِيلُ
مُتَقَلِّدٌ قَوْسَ الصَّبَا يَرْمِي وَلَيْسَ لَهُ رَسِيلُ
فَلَوَ أَنَّ أَذُنَكَ بَيْنَنَا حَتَّى تَسْمَعَ مَا نَقُولُ
لَرَأَيْتَ مَا اسْتَقْبَحْتَهُ مِنْ أَمْرِنَا وَهُوَ الْجَمِيلُ
وَعَلِمْتَ أَنِّي فِي نَعِيمٍ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ

فضحك الشيخ حين قراها ، وقال لابنه : « قُلْ لَهُ إِنِّي لَا أَتَعَرَّضُ

للشعراء » .

أما ذلك « النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول » فذلك أن جنان أرسلت تسمح له بأن يزورها . ولقد وقعت هذه الزيارة وتكررت ، وكانت زَوْرَاتُهُ لَهَا نَهَارًا كما كانت قَصَارًا . وظهرت فيها إحدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها بوصفها امرأة - لا مجرد أُنثى . فاذا بالماجن الفاسق قد صار عاشقًا على طراز المتيمن العذريين ، يبرأ من الريبة مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم في الحب من وطَرٍ إِلَّا الحديث والنظر . على أن جنان لم تلبث في ترحبها أن وجهت إليه « قد شَهَرْتَنِي فَاقْطَعْ زِيَارَتَكَ عَنِّي أَيَّامًا لِيَنْقَطِعَ بَعْضُ الْقَالَةِ » . ففعل محزونًا ، وكتب إليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا وبيننا - حين نلتقي - حسنٌ
فليس يُقْدَى عينا معاينةً له ، وما إن تمجَّه أذن
ويحَ تقيفٍ ماذا يضرُّهم إن كان لى فى ديارهم سكن
أَرَبٌ ما بيننا الحديثُ ، فإن زدنا فزيدوا ، وما لذا ثمن

وقع بالرسائل يدسُّها إليها ويحتال على إبلاغها لها ، فكان يبالغ في
تدبيجها وتهذيبها ويكثر من التألق في عبارتها ، ليختلب الحبيبة ويسترضيها .
وكان من ذلك ما لا بد أن يكون من كثرة الحو والإثبات فيها . فقام بنفسها
- فى سوء ظنها به - أن كثرة التغير فى رسائله حاصلٌ من أنه ليس يصدر
عن صدق شعورٍ وطبعٍ ، ولكنه التلفيق وتزوير القول . وفى ذلك يقول :

غضبتُ لحوٍ فى الكتاب كثيرٍ قالت : « أراد خيانتى وغرورى
كتب الكتاب على خلاف ضميره فالحو فيه لكثرة التغير »

وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورأت أن تصحبها ولا تتركها . وتراعى
الخبير إلى الشاعر من بعض رفاقه محمد بن زياد المعروف باليؤيو ، فقال شاعرنا
للذى أخبره : « أما والله لا يفوتنى المسير معها والحج عامى إن أقامت على
عزيمتها ، وما على من هذا » . فظنَّ مازحاً فى أول أمره . ولكنه سبقها
إلى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان أبو نواس ينوى الحج عمره ،
وما أحدث عزمه إلا خروجها .

ولقد شوهد فى الحج وقد أحرم . فلما جئته الليل على هذه الأرض المباركة

وقد ازدحت بالمسلمين من أقطار الأرض مشارقها ومغاربها ، فاض عليه
الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الإيمان ، واهتزت نفسه في جنح هذا
الليل لنجوى الغيب ، فسمع يئبى بشعر وهو يحذو به ويطرب :

إلهنا : ما أعدلك ملوك كل من ملك
لبيك ، قد لبيت لك وكل من أهل لك
لبيك إن الحمد لك والملك ، لا شريك لك

والليل لما أن حلك والساجات في الفلك
على مجارى للنسلك ما خاب عبد أملك
أنت له حيث سلك لولاك يا رب هلك

يا مخطئاً ما أغفلك عجل ، وبادر أجلك
واختم بخير عملك لبك إن العز لك
والملك لا شريك لك والحمد والنعمة لك

وكانت سبعة من سبحات الروح التي لا يخلو أن تطرق النفس البشرية
مهما يكن من ضلالها أو إنكارها في لحظة من لحظات الاتصال بالقوى
الغيبية العلوية .

فلما كان الطواف ، لقيه بعض أصحابه ، ثم فاتهم وتقدمهم ، فاذا بهم
يروونه خلف امرأة ، ولا يكادون يرونها إلا خلفها . فلم يدروا من هي . فلما

صارا إلى الحجر الأسود فإذا بالمرأة تلثم الحجر، وإذا هو قد لثم معها حتى ألصق
 خده بخدها في زحمة الخلق . وتقطنوا لها فإذا هي جنان . فلما انصرفا ، لقيه
 ممن راقبوه محمد بن عمرو الجماز (ابن أخت سلم الخاسر الشاعر) فقال له :
 « ويحك ! في هذا الموضع لا يزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ولا يردك
 حياء من الناس ! قدر أيتك وما صنعت اليوم » . فقال : « يا أحمق ! وحسبت
 قطع المهامه والسباب والرمال إلا للذي حججت له وإليه قصدت ! » . ثم
 أنشأ يقول :

وعاشقين التفّ خدّاهما	عند التثام الحجر الأسود
فاشتفيا من غير أن يائثما	كأثما كانا على موعد
لولا دفاع الناس إياهما	لما استفقا آخر المسند
ظلنا كلانا سائر وجهه	- مما يلي جانبه - باليد
نفعل في المسجد ما لم يكن	يفعله الأبرار في المسجد

وعاد أبو نواس من حجه هذا غير المبرور ، يردد قوله :

ألم تر أنني أفنيت عمري	بمطلبها ، ومطلبها عسير
فلما لم أجد سبياً إليها	يقرّبنى ، وأعيتني الأمور
حججت ، وقلت قد حجّت جنان	فيجمعني وإياها المسير

وتابع أبو نواس بعد عودته إيفاد الرسل إلى جنان ، حتى أعيته الحيلة

قيه ، فاستنظرته إلى أن يخرج زياد^(١) أخو مولاتها في سفر من أسفاره ،
ولم يكن ذلك إلا تعللاً منها . فقد خرج زياد ، وانقضت الأيام في إثر الأيام
ولم ثوف له ولا خرجت لملاقاته . فكان يطوف بقصر الثقيين كل يوم
على حد قوله :

أطوف بقصركم في كل يوم كأن لقصركم خلق الطواف
وهو متطلع متنظر على غير جدوى :

جَفْنُ عَيْنِي قَدْ كَادَ يَسْ قَطُّ مِنْ طَوْلٍ مَا اخْتَلَجُ
وَفَوَّادِي مِنْ حَرٍّ حَبِ كَ قَدْ كَادَ أَوْ نَضَجُ
خَبْرِي - فَدَتِكَ نَفْسِي وَاهْلِي - مَتَى الْفَرْجُ ؟
كَانَ مِيعَادُنَا خَرُو جَ زِيَادُ ، وَقَدْ خَرَجَ
أَنْتَ مِنْ قَتْلِ عَائِدٍ بَكَ فِي أَضْيَاقِ الْحَرْجِ

وكانت جنان لا يزال يساورها ويتمثل لوهما ما هو متواتر شائع من
عبث الشاعر وقبح سيرته وبعده عن جد الحياة واسترساله مع المجانة والهزل .
فكرهت بعد هذا كله أن تكون مثله . ورجعت إلى عاداتها من مجافاته وسوء
ملاقاة رسله ، وعادت تهجمه كلما ذكر لها اسمه ، وتظهر التأذي من تهتكه
فيها وغزله . فقال وهو لا يكاد يكتُم غيظه :

وَأَبَى مَنْ إِذَا ذُكِرْتُ لَهُ وَطُولُ وَجْدِي بِهِ تَنْقُصُنِي

لو سألوه عن وجه حجتّه
نعم ، إلى الحشر والتناد ، نعم
لا تشنّني - ويك - عن محبته
أصبح جهراً لا أستسرّ به
« يا معشر الناس فاسمعوه وعوا
في سبّه لي ، لقال : « يعشقتي »
أعشقه أو ألفّ في كفّي
ما دام روعي مُصاحباً بدني
عنفتني فيه من يعنّفني :
إنّ جنانا صديقة الحسن »

ولقد غضبت جنان لذلك غضباً شديداً ، فأطالت هجره ومصارمته ، وأصرّ
الرجل على حبه لها وتشبيبه بها :

أنا أهواك ، فوقى كدا
بأبي - لا غمك الله - اصبري
إلزمي الهجران وارضى لي الردى
ورآها المسكين ذات ليلة في منامه ، وكأنها قد صالحتّه ، فاهتاج شوقاً
إليها ، وكتب لها من فوره :

إذا التقى في المنام طيفانا
يا قرة العينين ما بالناس
لوشت - إذا حسنت لي في الكرى -
يا عاشقين اصطلاحاً في الكرى
كذلك الأحلام غرارة
وأيها ، وكتب لها من فوره :

وأخيراً أجمعت « عمارة » عزمها ، وبيّنت النية وزوجها على أن يُغيّبها
جنان عن الشاعر . وكان لمولى جنان أخ يقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد

بأن الجارية لم تكن من الشاعر في موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ،
ولكنه عبثٌ خرج منه . وكانت لأبي عثمان ضيعة بحكماء في ظاهر البصرة
فانتقلوا إليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر ولاع قلبه ، وانطوى منه على
شجو ناصب ، فكان لا يرى إلا هائما على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب
البال . وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من أقبل من تلك الناحية ، ويحتال
في ذلك فيجعل سؤاله عن أبي عثمان وعن زوج عمارة أبي مية ^(١) محمد بن
مخالد ، وغنى عن البيان أن قصده كله التقصّي عن جنان ، وما كان ذلك
ليخفي على واحد ممن كان يتوجه إليهم بالسؤال :

أسأل القادمين من حَكَمَانَ « كيف خلقتما أبا عثمان ،
وأبا مية ^(١) المَهْدَبَ والمأْمُولَ والمرتجى لريب الزمان ؟ »
فيقولان لي : « جنانٌ كما سرَّ لك من حالها ، فسَلْ عن جنان »
ما كُفِّمَ - لا يَبَارِكُ اللهُ فيهم - كيف لم يَغْنِ عندهم كتمانِي ؟

وما من ريب في أن أبا نواس كان حقيقا بأن تنصلح حاله ويستقيم
طبعه وتحمد سيرته ويصح دينه ، لو أن علاقته بجنان في عقلها وكال أدبها

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن (أبامية) ابن عم (لأبي عثمان)
ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها أن أبا مية هو نفسه
زوج عمارة ولعل ذلك الأصح ، ويؤيده ما ورد في الأغاني في الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧
من أن أبا مية (أمية) اسمه خالد ، والشاعر بن مناذر فيه أبيات مذكورة تشير إلى أنه
كان يخطب نساء ثقيف فيرد لفقره - وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت (سرور)
في الاحتيال له في الزواج بعمارة مولاة جنان .

قد دامت له ، وأدّت إلى نتيجتها الطبيعية من اقترانه بالمرأة التي يحبها ،
والاستقرار بالحياة الجنسية في كنفها ، وطلب ما فيه الرفعة له في عينها . ولكنها
هي وجميع من حولها - لسوء حظها وتعسه - لم يفهموه حق فهمه ، فلم يصدّقوا
أن جنان منه في موضع عشق ولا عشرة ، أو أنه يخلص يوماً في حب المرأة .
وحسبنا في الدلالة على الأثر الطيب الذي كان لهذه العلاقة في صلاح
سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنانٍ خلعتُ عن رأى عناقى ،
وركبتُ ما أهوى وكُم أجفو مقالةً من نهانى ،
وخرجتُ أخبط سادراً لم أُغنَ عن حبّ الغواني .
وقد تبين أيضاً أثر ذلك واضحاً في شعره ، حتى أخذ عليه بعضهن سكوته
عن تصوير محاسن الأجسام ونعت الخمر إلى وصف الجوى وشكوى الهجر :
وقائلةً لى « كلُّ شعرك في الهجرا » فقلت « برغمى حيث سار به شعرى
تشاغل بالهجران ممن أحبه ، وقد كان يحلو بالمحاسن والخمر »
فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من مطلبه ، وانقطع
منه رجاءه ، لم يطق المقام في البصرة ، فأزعم الرحيل ، وكان برغمه التوديع :
كفى حزناً ألا أرى وجه حيلة أزور بها الأحباب في حكامان
وأقسم لولا أن تنال معاشر جناناً بما لأشتهى لجنان ،

لأصبحتُ منها دانيَ الدار لاصقاً ولكنّ ما أخشى - فُديتِ - عدائي
أراني انقضت أيامُ وصليَ منكمو وآذن منكم بالوداع زماني
فواحرزنا يومى إلى به الورى ويصبحُ مأثوراً بكل مكان
ونزح أبو نواس يطلب ودّ الملوك في بغداد . ويخطى من يحسب هذه
الدنيا الزاخرة الشائقة التي هو مقبلٌ عليها بالتي تذهله عن جنان . وحسبنا في
ذلك اعتراف الشاعر نفسه « وخرجتُ إلى بغداد وفي نفسى بقايا من حبها ،
ما فارقتنى ولا تفارقنى إلا مع خروج روحى » .

في طريق بغداد

خرج أبو نواس من البصرة كالمائم على وجهه ، وقد اسودَّت في عينه
مجالها ، وضاعت به مغانيها . فغادرها مدعياً الكره لها والتشكر لأهلها . ولا
شك في أنه كان يجد للذكرى وجداً عظيماً ويحسُّ لها مصاً أليماً ، حتى بلغ في
طلبه النسيان أنه عمداً الى المراسلة بينه وبين خاصة الإخوان في البصرة
فقطعتها :

قولا « لعباس » لكي يدرى	أغلام عاكٍ قدوة المضر
« فيم الكتاب إلى تخبرني	بسلامة - في البطن والظهر
فاقطع بسيف صارم ذكر	أسباب كتب بيننا تجري
فإن امتنعت فلا موافقة	حسبي كتاب منك في الدهر
واجمع حوائجك التي حضرت	عند الكتاب إلى - في سطر
ما ذاك إلا أنتي رجل	لا أستخف صداقة البصري

على أنه غير قمين بالقارئ أن ينخدع بهذا القول في حالة السخط واليأس
فقد عاد الشاعر يحسن الى موطنه في البصرة . ويشتاق منازلها ومعاهد صباه فيها

ولكنه كان يتكلف الصبر، ويلزم نفسه السلوان، متلئياً بالشرب والقصف
في الحانات والمقننات، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلي ، وأقوت الكتبُ مني فالمرُبدان ، فاللببُ
فالمسجدُ الجامعُ المروءة والد ين عفا ، فالصحان فالرحبُ
منازلُ قد عمرتها يفعاً حتى بدا في عذارى الشهبُ
في فتية كالسيوف هزهم شرح شباب وزانهم أدب
ثم أراب الزمان فاقسموا أيدي سباني البلاد فاشعبوا
لن يخلف الدهر مثلهم أبداً على - هيات - شأنهم عجب
لما تيقنت أن روحهم ليس لها ما خيت منقلب
أبليت صبراً لم يبله أحد واقتسمتي مآرب شعب
كذلك أني إذا رزيت أخوا فليس بيني وبينه نسب
قطر بل مربعي ، ولي بقري الـ كرخ مصيف ، وأبى العنب
ترضعني درها ، وتلحفني بظلمها والهجير يلهب
إذا ثلته العصور جلاني فينان مافي أديمه جوب
تبيت في ماتم حمامة كما ترثي الفواقد السلب
يهب شوق وشوقين معاً كأنما يستخفنا طرب
فإذا أضفنا إلى هذه أبياتاً له أخرى يقول فيها :

أيا من كنت بالبهرة أصفي لهم الودا

ومن كانوا موالىً ومن كنت لهم عبداً
ومن قد كنت أرغاه وإن ملّ وإن صدّا
شربنا ماءً بغدادٍ فأنسانا كم جِداً

لم يبق موضعٌ للشك في أن شاعرنا نزع من البصرة لأنه خاب في حبه
وفجع في قلبه . ولقد بلغ به الكمد والكرب أن بدت في عذاره ومفرقه
رواعى الشيب ، ولما يزل في شرح الشباب وريعانه .

وأخذ الشاعر في طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما عاج به من
البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن يقصد منها الكوفة الجليلة المعروفة
بالعلم والعلماء ، وإنما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك
التي عرف سوادها وجاس أرباضها وشرب في دساكرها وحاناتها ، واطلع طلع
ملاهيها ، وخبر مواضع القصف فيها ، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . إنه اليوم
لأشد حاجة الى الشكر ، وأفسح عذراً في التلهى والقصف ، تفرجاً عن
همه وتخففاً من يأسه القاتل وهرباً من نفسه . ولقد لقي صاحبنا في الكوفة
من الندماء من أحمد مودتهم وارتضى صحبتهم وأنس بمنادمتهم ، حتى ختم
قصيدته الرائية في ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفان » مذهبها وعدمت عن ظرفائها صبرى

وكان بظاهر الكوفة وحولها مواضع من أنزه البقاع وأطيها ، كثيرة
المياه والرياض ، وكانت تقوم في معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان في
انقطاعهم بهذه المواضع يعملون إلى جانب العبادات لتزويد الدير بحاجاته وتوفير

موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والسكروم ، وإلى ناحية من السكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير بيع للارتفاق بتمنه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران وعلى الخصوص بمعنتاتها من الخمر ، وهى من قديم « المشهورة فى الآفاق ، المعروفة معارسها بطيب الأعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب من المسلمين للخمور النصرانية لارتياض النصارى باعتصارها وحذقهم له ، فضلاً على ما اختصت به معاصر الأديار من النظافة . وكان من هذا الإقبال أنه تأدى بالرهبان إلى اتخاذ الحانات إلى جانب الأديار لبيع خمرها لمريديها . فكان يقصد إليها فيمن يقصد أصحاب اللهو والجنان من المسلمين ليشربوا الخمر العتيقة ، فى الأنية النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع النواقيس وأنعام التراتيل والقراءات فى المزامير والأنجيل ، وغير ذلك من التلاحين البيعية . ولقد عاج أبو نواس فى طريقه إلى بغداد على حانات هذه الأديار التى كانت كثيرة حول الكوفة وفى ظاهرها ، فكان يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعد قد تعود الإدمان عليها والعيب فيها :

وقهوة عتقت فى دير شماش تفتّر فى كأسها عن ضوء مقباس
مزاجها دمع حاسيها ، فأى فتى لم يبك إذ ذاقها من حرقة الكاس
سلم ، ولكنها حزب لذائقها يا حبذا بأسها ما كان من باس
وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولا يدع الساقى يفتّرعنه ،

ولا يبرح يناشده أن يحث المدامة إليه ويديرها مرات بعد مرات عليه . وإنه ليتبادر للخطر أنه كان يشرب لا للشرب ولذته ، وإنما تعجلاً لسكرته والتماساً لذهول العقل وغيبة الفكر :

رُدّا على الكأس إنك لا تدريان الكأس ما تجدى
لو نلتما ما نلت ما مُزجت إلا يدمعكما من الوجدي
وظاهر من هذا أنه قد عكف على الكأس حين عكف ليغرق الهم
في كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسه وينسلخ عن ذكرى أمسه . فهل تراه
أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما في نفسه ؟ هيات ، بل كانت هذه المجالس
التي جلسها للشرب في الأديار على رنين النواقيس وترانيم الرهبان وأنواع
التطريب والألحان أدعى للذكر وأورى عنده لنار الوجد ، حتى تغلب الحال
عليه وتطفح به ، فيظهر طربه خارجاً عن القصد متجاوزاً للحد ، يحسبه
منادموه عريضة منه خلفاء سره وجهلهم لأمره :

إذا شاقك ناقوس وشجوا الناي والعود
وغوديت بريق الخمر محته العناقيد
تطربت إلى الإلف فقالوا أنت عريبد
وهل عريبد مكروب قريح القلب معمود !

ولقد كان من الدواعي المحببة للشرب والمغرية به موقع الأديار بين الجنان
الموتقة والغدران المترققة ، أو على الروابي العالية المطلّة على الأودية الناضرة
والمياه المتحدرة والسهول الفسيحة . ولا شك في أن رقة الهواء ، ورواء المنظر

وحسن المستشف، وهذه الألوان البهيجة المشبوبة، والعطور المفترجة المشوبة،
من شأنها أن تشد الحواس وتنبه مرا كز العصب، فيتحرك الحب في قرارة
كل قلب. وإذا لم يكن لشاعرنا المهجور أمل في الحب، فقد أنصرف إلى
الشرب في هزة طربه واهتياج مشاعره. وهذه أبيات له في دير مريونان
— ويقال له أيضاً عمر يونان — في الأنبار على ضفة القرات، وهو دير كبير عليه
سور محكم، ورياضه غناء فيحاء:

أَذْنُكَ الناقوسُ بِالْفَجْرِ	وَعَرَدَ الرَّاهِبُ فِي الْعُمْرِ ^(١)
وَحَنٌّ مَخْمُورٌ إِلَى الْحَرِّ	وَجَاءَكَ الْغَيْثُ عَلَى قَدَرٍ
وَأُطْرِدْتُ عَيْنَاكَ فِي رَوْضَةٍ	تَضْحَكُ عَنْ خُضْرٍ وَعَنْ صُفْرٍ
فَعَاطَ نَدْمَانُكَ مِنْ خَمْرَةٍ	مَزَاجُهَا مِنْ مُعْرِقِ الْقَطْرِ
عَلَى خَزَامَاهَا وَحَوَازَاهَا	وَمَشْكَلٍ مِنْ حَالِ الزَّهْرِ
فِي مَسْرَحٍ تَرْتَعُ أَكْنَافُهُ	شَوَادِنٌ مِنْ بَقَرِ زَهْرٍ
يَا حَبِذَا الصَّبْحَةُ فِي الْعُمْرِ	وَحَبِذَا نَيْسَانُ مِنْ شَهْرِ
يَا عَاقِدَ الزَّيْنَارِ فِي الْخَصْرِ	بِحَرْمَةِ الْحَنَانَةِ وَالْفُهْرِ ^(٢)
لَا تَسْقِنِي — إِنْ كُنْتُ بِي عَالِمًا —	إِلَّا الَّتِي أَضْمَرْتُ فِي صَدْرِي
هَاتِ الَّتِي تَعْرِفُ وَجَدِي بِهَا	وَإِنْ كُنْتُ بِمَا شِئْتُ عَنْ الْحَرِّ

ومن الديرة التي عاج بها أبو نواس بظاهر السكوفة على بعد يومين منها
دير حنة، وهو دير قديم في بقعة كثيرة الرياض والبساتين، تحاذيه منارة

عالية كالمقرب تسمى القأم ، وبه بيوت صغار يسكنها الرهبان الذين لا قلال لهم وتسمى هذه البيوت بالأكيراح . ولعله من أدل الشواهد أيضا على ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير وكل هم أن يسكر من معتقات دنانه ، وينظر الى طبائنه من الإنس وغزلانه ، على حد قوله :

يادير حنة من ذات الأكيراح مَنْ يَصْحَ عَنْكَ فَإِنِ لَسْتُ بِالصَّاحِي
رأيتُ فيك طباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وأرواح
فانه مع ما كان من سكره ومجونه ، لم يلبث أن راعه وأخذ بقلبه هذا المشهد المائل لعيانه للزهد في متاع الحياة ، والإعراض عن الدنيا والانتفاع لله . فقد جعل - وبه شعور مخامر من العجب الذي لا ينقضى والارتياح الذي لا يدرى كنهه - يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد أنحلهم القنوت والتقصف ، وشفهم التهجد والتعب ، وأذابهم طول التفكير والخوف من نار السعير ، فلا يرى الناظر إليهم إلا أشباحا ، محفوة مفارقهم ، محوفة رعوسهم ، عليهم من ثياب الرهبانية مسوح خشن بالية ، وقد عزفوا في مطالب العيش عن كل زيادة ، وحرّموا على أنفسهم من أسباب الترف أهون وسيلة وأدنى آلة ، حتى ليشربون من الغدران بغير آنية اغترافا بأيديهم . فاسمع إليه يقول فيهم :

دع التشاغل بالذات - يا صاح - من العكوف على الريحان والراح
واعدل إلى فتية ذابت نفوسهم من العبادة ، نحف الجسم ، أطلّاح

لم يبق منهم لرائهم إذا حصلوا - حذار ما خوّفوه - غير أشباح
تلقى بهم كلّ مخفوّ مفارقته من الدهان ، عليه سُحق أمّساح
لا يذلّفون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح
ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه ، ومن تحقّق معناها في حسّه ، أن عاد
إليها بمثل هذا الوصف من البحر والقافية :

دع البساتين من آسٍ وتفتح واعدلْ - هُدَيْتَ - إلى ذات الأكيّاح
إعدلْ إلى نفرٍ دَقَّتْ شخوصُهم من العبادة إلا نِضَوْ أشباح
يكرّرون نواقيساً مرجّعة على الزبور بامساء وإصباح
تُبْعِدُ بسمعك عن صوتٍ تَكْرَهُه فليست تسمع فيه صوتَ فلاح
إلا الدراسةَ للإنجيل من كُتُبٍ ذكرَ المسيح بإبلاجٍ وإفصاح
على أن الشاعر لا يلبث حتى يعاوده ما تعودّه أمثاله من السكر والمجنون ،
فتراه بعد أن عدل - في هاتين المقطوعتين - عن الريحان والراح والآس
والتفتح ، إلى ذكر العبادة والصلاح ، ووصف العابدين أنضاء النسك كالأشباح ،
ينتقل إلى ما كان عليه من التغنى بالخرّة المعتقدة التي يتحفون بها الضيوف في
القُباب السكّبار ، وإلى التغزل بالراهب الفقي الذي دار بها عليهم وقد صار
بعد السكر ينعت نحوّه بالهيف ، وعاد يستظرف ما عليه من مسوح الرهبانية
ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نعمة شعره إلى وتيرتها ، وتعود حياته
الماجنة سيرتها ، فيختم أوصافه للدير وأهله كما بدأها :

يا طيّبه وعتيقُ الراح تحقّقهم بكل نوع من الطاسات رَحْراح

يستقيسها مُدْمَجُ الحَصْرِينِ ذَوْهَيْفٍ أَخُو مَدَارِعِ صُوفٍ فَوْقَ أُمْسَاحٍ
 ولقد كانت الأديار كثيرةً في العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان
 بعضها على جانبٍ عظيمٍ من حسنِ العمارة ونقاسة البناء ، وقد تَحَصَّنَ الأسوارُ
 الشاهقة والأبواب المفرطة في الكبر من حديدٍ مُصَمَّتٍ أحياناً ، وكان منها
 ما تعلوه القبابُ المنيفة تُرَى من بعيد . وكان لبعضها زينةٌ في داخلها نهاية
 في البهاء والرواء . فمنها ما كانت مزوّقة الجدران بأشكال النقوش والقصوص
 المذهبة ، مفروشة أرضها بصنوف الرخام المجزّع والمرمر المسنون الممرد لا تستقر
 عليه القدم ، وفي سقوفها الذهب والفسافس والالزورد ، وقد عُلِّقت في هياكلها
 القناديل من فضة ، واتَّخَذَتْ لها الصليبان من ذهب . وفي أركانها وآزاج
 طيقانها الدُّمْحَى محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفي سقوفها وحيطانها صور
 مرسومة ملونة بأزهى الأصبغة والألوان . وفي الصدر صورةُ المسيح وعلى
 رأسه إكليلُ الشوك ، أو صورة مريم في غاية من إتقان الصنعة « كَمَا مِلَتْ
 من ناحية كانت عينك إليها » .

ولقد كانت الأكوابُ التي يُسْقَى بها ضيوفُ الدِّيرة من ذهبٍ أحياناً ،
 وكان منها الأملس الغُفْلُ ، ومنها المنزَلُ المحفور بأنواع الرسوم الدينية . ولقد
 شرب أبو نواس خمرة ذهبية اللون في أمثال هذه الأكواب الذهبية ، فقال :
 أَقُولُ لِمَا تَحَاكِيَا شَبَهَا أَيَّهَا - لِلتَّشَابِهِ - الذَّهَبُ
 هُمَا سَوَاءٌ ، وَفَرَقٌ بَيْنَهُمَا أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمُنْسَكَبٌ

مُسْنٌ ، وأمثالها محفرة صَوَّرَ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّبَّ

يَقْلُونَ إِيحْيَاهُمْ ، وفوقهم سماءُ خمرٍ ، نجومها الجَبَبُ

ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء الحُجَّان أمثال أبي نواس لحانات هذه الأديار أن كثرت في أشعارهم ورُودُ أسماءها والتغنى بمخمرها ووصف بساتيتها . وقد ألما في تلك الأشعار ببعض شعائر النصارى ومصطلحاتهم وإن كانت لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذي يزعمونه عن ليلة الماشوش وما يجري فيها من إباحات واستهتار بالحارم مما لا يقره دين ولا يصح في عقل . وإلى هذا الوهم يشير أبو نواس في أبيات له في تفضيل بهروز الفارسي على العالمان النصارى :

نَقَى فِي الْوِلَادَةِ عَنْ مَشُوشٍ يَرْخِصُهُ النَّصَارَى لِلْقُسُوسِ

وحسبنا لبيان الإمام هؤلاء الشعراء المسلمين بالشعائر النصرانية في أعياد القوم ومتعبداتهم هذه الأوصافُ لأبي نواس :

كَأَنَّمَا الْكَأْسُ إِذَا ضَفَّقَتْ قَنْدِيلٌ قَسٌّ وَسَطٌ مَحْرَابُهُ

وله في فوران الخمر في إبان تعتيقها في الدنان :

أَقَامْتُ حَقْبَةً فِي قَعَرِ دَنْ تَفُورٌ وَمَا يُحَسُّ لَهَا هَلِيبُ

كَأَنَّ قَرَاتَهَا فِي الدَّنِّ تَحْكِي قِرَاةَ الْقَسِّ قَابِلُهُ الصُّلَيْبُ

وقوله متغزلا :

عَيْنَايُ تَشْهَدُ أَنِّي عَاشِقٌ لَكُمْ يَا دُمِّيَّةَ صَوَّرُوها فِي الْحَارِيبِ

وأخيراً هذه الأبيات في المجون يخاطب فتى نصرانيا اسمه عبد يشوع بن

مارى سرجس :

بمعمودية الدين العتيق بمطرُ بليظها ، بالجائليق^(١)
 بشمعون ، بيوحنا ، بمتى ، بمارى سرجس القس الشفيق
 بمارت مريم ، ويوم فصح ، وبالقربان ، بالخر العتيق
 بميلاد المسيح ، بيوم ذبح ، وباعوث^(٢) لتأدية الحقوق
 وأيام السعائين^(٣) المبدى وشعلة النصارى فى الطريق
 لهيكل أسقف ، وبما يليه ، ونشر البند والعلم الخفوق
 وبالصلبان ترفعها رماح تلالا ، حين تومض بالبروق
 وبالناقوس فى البيع اللواقى تقام بها الصلاة لدى الشروق
 بداوِد وما يتلون منه بترجيع يُردّد فى الخلق
 بقلاليات دومة ، بالمقاسى ومذبح ديرها الحسن الأنيق
 وزهبان الصوامع فى ذراها مقامهم على جهد وضيق
 بكنس الروم والشامات طرا بقسطنطينة البلد السحيق
 لقد أصبحت زينة كل عيد ودين ، مع جفائك والعفوق
 ومن مقطوعة أخرى :

(١) الجائليق مقدم الأساقفة (٢) الباعوث : عيد للنصارى كالأستسقاء للمسلمين

(٣) السعائين أو الشعائين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

روح القدس والميلا د والهيكل والذبح
وصورة مريم العليا وبالساق^(١) في الصبح
ومثلها :

بسجود القسيس يوم السجود والصليب المعظم المعبود
وبناقوس بيعة اللحم حقاً وبأبقالها وبالأقليد
وبما في يموتها من رخام وبما تحت سقفا من عمود
وغير ذلك كثير من الأقسام التي تشتمل في مضامينها على جملة أوصاف
أشعائر النصراني وشئنها ومشاهد مواكبهم ومصطلحات دينهم ومتعبداتهم .
وفيا ورد منها الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسلمين بهم اتصال
معرفة ومودة ، وعلى اغتنام الخلعاء والمتاجنين لأيام أعيادهم للنظر إلى محاسن
فتيانهم وفتياتهم في الحللى والحلل في غدوهم إلى البيع والكنائس ،
والتعرض لهم أحيانا بالغزل والعبث .

على أنه يحسن أن ننبه هنا إلى أن ما يرويه أبو نواس وأمثاله من
خلاعاتهم ورقاعاتهم في الأديار في عصابة من الفتاك الخلعاء ورققة من الشطار
والفتيان المفاصيد ، إنما ينصرف إلى الخانات والبساتين التي حولها ، كما هو
واضح جلي من شعره :

بدير نهر اذان لي مجلس وملعب وسط بساتينه

(١) السلاق : عيد للنصارى وفيه تسلق المسيح مصعداً الى السماء

رحتُ إليه ، ومعى فتية
بكل طَلَّابِ الهوى فاتك
حتى توافينا إلى مجلس
والترجس الغضّ لدى ورده
وجيء بالذنّ على مرفع
واقصد الأكل من دننا
وطاف بالكأس لنا شادن
يكاد من إشراق خديه أن
فلم نزل نسقى ونلهو به
حتى غدا السكران من سكره

نزوره يوم سعادينه
قد آثر الدنيا على دينه
تضحك ألوان رياحينه
والورد قد حَفَّ بنسرينه
وخاتم العليج على طينه
فانصاع في حمرة تكوينه
يُدميه مسّ الكف من لينه
تُختطف الأبصار من دونه
ونأخذ القصف بآيينه
كلميت في بعض أحايينه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا في طيزناباذ بين الكوفة والقادسية
ودياراتها ذات قباب ، وهى من أنزه المواضع ، محفوفة بالكروم والشجر ، وفيها
المعاصر والحانات ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا
أيضا معدول عن الدير إلى بستان صاحب الدير (وهو العمّار أى الديرانى ، من
العُمَر وهو الدير) :

يا جبدا مجلس قد كان يجمعنا
وحبذا أم عمّار ورؤيتها
تعلنا بمدم قد تناولها
لم نخط من خذرها شبرا إلى أحد

بطيزناباذ في بستان عمّار
خماراً أصبحت أمّا لعمّار
ريب الزمان وعصر بعد أعصار
ولم نزل بين جنات وأنهار

ولعل أبا نواس لم يدع في طريقه إلى بغداد ديراً أو عمراً ، ولا قلايةً
أو كِرْحاً ، إلا أتم به ، فهو لا يفتأ يلج بذكر ديارات الحيرة وطيزناذ والأنبار
وغيرها ، مردداً اشتياقه لها وما يعتاده من الحنين إليها ، تجديداً لمجالس شربه
في حاناتها ، وملاهيته في بساطتها :

أنا والله مشتاقٌ إلى الحيرة والخمر
وأصوات النواقيس على الزيرات بالفجر
ومشتاقٌ إلى الحانا ت يوم الذبح والنحر
وممن في طلاب المر د والخمر معاً وفرى
أما والله لو تسمع ما قلت من الشعر
لاست من افلاحي يقيناً آخر العمر

ولقد أفادته هذه الرحلة مع ذلك حب الطبيعة ، إذ جلتها أجل جلوة
في عينه ، وقرّبتها إلى قلبه ، وخلطتها بحسه ، فظهر أثر ذلك جلياً في شعره .
على أن هذا الحب للطبيعة لم يرتفع عنده إلى وقعة التعبد في هيكالها والخبوت
لروحها والشعور الديني بحضرتها والاتحاد الصوفي بروحها ، وإنما كان قصاراه
أن جعله دائماً الصبوة إلى طيب المجالس في رياضها ، سريع النشوة بعطورها
وأطيافها ، متطرباً إلى خرير جداولها وأطيافها ، منجذب العين إلى أنواع
ريحانها ومشبوب ألوانها ، حتى صار لا يطلب شيئاً طلبه للشرب في أحضانها
كأنما يرتضع الخمر من لبانها . ومعنى ذلك أنه وإن يكن عاشقاً من عشاق

الطبيعة لم يكن عشقه لها إلا من نوع العشق الحسى لا يعنى بغير المموس المحسوس .
 فالطبيعة عنده - كما قدمنا - ليست معبداً ، واسكنها مرتعاً موقق للهو واللعب
 لا مرتعاً مثله ، ومجلس مأنوس للسكر والطرب لا يعدله مجلس . وهنا يتشاغل
 هذا الحب الحبيب عن هوى «جنان» بهوى المرد والقيان . وهنا نلقى هذا
 الشاعر العالم يغالب بالشراب أحزانه ويطفى به وجدّه وأشجانه ، لو صح أن
 اللذة تغنى غناء الحب ، وأن الخمر تطلق النفس من عقال الهمم ، وتفرغ برد
 الغراء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم المحزون :

لا تَحْشَعَنَّ لطارقِ الحدثانِ	وادفعْ همومَكَ بالشرابِ القانى
أَوْ ماترى أيدى السحائبِ رَقَشَتْ	حُلِّلْ الترى بطرائقِ الريحانِ
من سوسنٍ غَضَّ القُطَافِ ، وَخَزَمَ	وَبَنَفَسَجِ ، وشقائقِ النعمانِ
وَجَبَنِيَّ وَرْدٍ يَسْتَبِيكَ بِحَسَنِهِ	مِثْلَ الشَّمْسِ طَلَعْنَ مِنْ أَغْصَانِ
خُمْراً وَبَيْضاً يُجْتَنَيْنِ ، وَأَصْفَراً	وَمَلَوْنَا بِيَدَائِعِ الْأَلْوَانِ
كَعُقُودٍ يَأْقُوتِ نَظْمِ وَلَوْلَوْ ،	أَوْ سَاطِئِ فِرَائِدِ الْعُقَيَارِ
وَمِنْ الزَّبْرِجَدِ حَوْلَهُنَّ مِثْلًا	سَمَطًا ، يُلُوحُ بِجَانِبِ الْبُسْتَانِ
فَإِذَا الْهَمُومُ تَعَاوَرَتْ فَسَلِّهَا	بِالرَّاحِ وَالرَّيْحَانِ وَالنَّدَمَانِ

دار السلام في عصرها الذهبي

تعجل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطولةٍ وختمٍ مطافه ، وأقبل لأول عهد
الخلافة هارون الرشيد قادماً على دار السلام ، بغداد التي اختطها المنصور
فأصبحت أزهى وأزهر حواضر الإسلام .

ولا شك أنه قد دخلته الروعة ، وامتسلت نفسه جلالاته ، وشبعت
عينه فتنةً ، وهو يستشرف إليها ، ولقد بدت أسوارها المكيمة العريضة
الجدران ، الشاهمة البنيان ، كالقلعة الحصينة . وكان يدور حولها خندقٌ ،
ومن ورائه مسناة^(١) بالآجر والصاروج^(٢) متقنة محكمة عالية . وكان دخول
« أبي نواس » من المدخل المقابل للطريق التي أتى منها - أي من باب
الكوفة . فإذا هو منه في دهليز عظيم أزج^(٣) معقود بالآجر والجص ، في جوف
السور الخارجي الكثيف ، وكان عليه بابٌ كبير جليل المقدار لا يغلقة ولا
يفتحه إلا جماعة رجال . ثم أفضى من هذا الدهليز إلى رحبة مفروشة بالصخر
طولها ستون ذراعاً ، مسورة غير مسقوفة ، وهي مادة في انحراف وازورارٍ

(١) ما يبني في وجه السيل : السد (٢) آجر ما يبني به من الطين المطبوخ (الطوب
الأحمر) . الصاروج الكلس (الجير) وأخلطه (٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

إلى سور المدينة ، تشقّ براح الفصيل الدائر بين الأسوار الخارجية والأسوار الداخلية ، وفي حائطى هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان في جنبتيها يشترعان ^(١) إلى الفصيل . فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى في صدرها الى الباب الثانى ، وهو باب المدينة فى سورها الأعظم الذى عليه تقوم الأبراج العظام والشرفات المدوّرة . ومضى القادم المدهوش يخرق الدهليز الثانى فى جوف السور الداخلى والدهليز أزج معقود مثل سابقه ، عليه بابا حديد جليان عظيمان ، يدخل منهما الفارسُ بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح . وتأتى بعد ذلك الرحبة المربعة تنتهى الى طاقات ^(٢) معقودة ، فيها كواء ^(٣) رومية يدخل منها الشمس والضوء . وعلى طاق المدخل بابٌ ساج كبير من فردين ، وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقين عُرفٌ للمرابطة .

وكان باب المدينة الذى دخل منه شاعرنا - كسائر أبوابها الأربعة - تعلوه قبة عظيمة تناطح السماء ، مذهبة مزخرفة ، معقودة فوق مجالس يشرف منها على كل ما يجرى حولها ، ويُصعد إليها على عقود مبنية بعضها أعلى من بعض ، وفي داخلها الديادة والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثالٌ تديره الرياح لا يشبه نظائره على القباب الأخرى .

وانتهى أبو نواس من هذه الأسوار والدهاليز والطاقات والأبواب التى تحرسها الجند ، إلى داخل المدينة العظيمة . فإذا داخلها لا يكذب ظاهرها .

(١) ينقذان إليه . (٢) جمع كوة (٣) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أى أقواس من البناء

فهي من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أهبة العماره ، وفوق ما يتقدره حسابان الحاسب من رواج التجارة ، ثم هو على أشد الزحام بالناس أخلاطاً من سائر الأجناس . ولعلّ أعظم ما شاقه منها وارتاح إليه فيها ذلك الطابع الأعجمي الذي يطبعها ويغلب عليها في كل شيء .

قبتها وقصورها ومصانعها على مثال من الهندسة فيه الفارسي والبيزنطي وقد حوّلوها بالأسوار ، وجعلوا في سطوحها القباب مرفوعة على العمدة الدقاق كأنها معلقة في الهواء . وزينوا جدرانها وسقوفها بالنقوش الملونة ، وفصوص القسيفساء المذهبة ، وتصاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيوان من طواويس وغزلان . وكتبوا الآيات بالذهب الجسّم ، وحفروا المناظر الممثلة للحياة على المعدن ، واتخذوا الزجاج الملون على دوائر الأبواب والقمرانيات . وعمدوا في صنع أطرها إلى الآبنوس وغيره من الخشب الثمين . وتأثّقوا في اتخاذ الجنات في قصورهم وتنسيق المتنزهات يجلبون إليها بدائع الأغراس وغرائب الأطيّار من أطراف الأرض ، ويسوقون إليها الجداول ويننون السقايات . ويحتفرون البرك تجري فيها الزواريق للهو والغناء في الليالي القمراء وكان من هذه القصور ما يرجع عهداً إلى المنصور مثل « قصر الذهب » الذي بناه وسط بغداد المدوّرة ، وفي صدره الأيوان تنعقد فوق مجلسه الأعلى القبة الخضراء منيفة تَرى من أطراف المدينة ، وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارسٌ وفي يده رمح . وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد ، ومأثرة

راسية الأساس لموطد ملوك بني العباس . ثم « قصر الخلد » على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان . وقد جاءت تسميته تشبيهاً له بجنة الخلد ، لما يحويه من عجيب فائق وجميل شائق من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه . وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيدة المشهور بدار القرار . وكان القصران متقاربين على الضفة الغربية من النهر . وكان بحذاءهما من الجانب الآخر قصور البرامكة لا تقل عنهما عظمةً وأبهة . ثم غير هذه وتلك قصور عدة على جانبي دجلة للأمرء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا الدور والأسواق والجوامع والحمامات وهي لا تحصى كثرة .

وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » في بعض أشعاره :

كنت « بقصر الخلد » في روضة تخرقها الأنهار بالسفن
 خلا لها الورد لدى نرجس معتنق للآس في غصن
 نيط بتفاح إلى مشمش بين نخيل الطن والبرن
 يا خبـذا النوار نواره مختلف البهجة في الحسن
 من أصفر يزنو إلى أحمر وأبيض في اللون كالتقطن
 كما أشار إلى ما كان في قصر المهدي من حسان الطواويس في قصيدة
 في باب الطرديات ينعت ديكاً من ديوك الهند :

أنعت ديكاً من ديوك الهند أحسن من طاووس « قصر المهدي »
 ومن إشارته لقصور الأمرء قوله في إحدى خرياته وقد دعاه الأمير

عيسى بن أبي جعفر المنصور ليقم عنده أسبوعاً في القفص في أرباض بغداد :
ياطيناً بقصور القفص مشرقةً فيها الدساكر والأنهار تطرد
ولقد كان شيوخ اللباس الفارسي في بغداد يكاد يكون عاماً بعد سنوات
من صدور أمر الخليفة المنصور لأصحابه بتغيير الزي الرسمي في سنة ١٥٣ .
فكانت طوال القلائس بدل العمام لرجال الدولة وأصحاب الديوان ، والطيايس
السود للعلماء والمشايخ ، والأقبية لسائر الرجال ، والقراطق والمناطق للعلمان
والجواري .

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسية ظاهراً في كل ناحية من نواحي
الحياة العملية والعلمية ، العامة والخاصة ، حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة
على أن أبانواس قد شغل عن هذه المعالم كلها مع عظم سروره بها ، فلم
يعرض بشيء من جيد القول لوصف القصور أو غيرها من آيات الحضارة
وعظمة الملك في بغداد في عصرها الذهبي أيام الرشيد والبرامكة . وإنما الذي
شغله الشغل كله واستولى على نفسه وملاك عليه مشاعره ، هو هذه الروح
الفارسية ذات النزعة الحسية ، منبعثة في بغداد ، تجري في حلبتها منطلقة في
أعنتها ، بكل ما عرف عن الفرس منذ قديم من حب للنبيذ ، ونزوع للهو
والسرور ، وميل للطرب والغناء ، واستجابة لدواعي الغزل . وهي روح
متفقة مع ديانتهم الزرادشتية القديمة التي جعلتهم يعبدون الطبيعة في مظاهرها
الحسية دون استغراق في الغيبيات كغيرها من الديانات
ولقد كان لهذه الحضارة التي انغمس فيها الشاعر أعماق الأثر في نفسه ،

وهي كذلك معكوسةٌ أُصدق الانعكاس في شعره . ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون ينسجون على منوال الشعراء الجاهليين ، من الوقوف على الأطلال التي تعفّت فلا تكاد تبين ، والبكاء على منازل الحى الذين تحملوا بخيامهم ظاعنين ، وذكر غراب البين الذى آذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلفوا من رسوم ، وتشم ما حولها من العرّار والشيخ والقيصوم . وذلك مع كون هؤلاء الشعراء من طبقة المُحدثين ، وقد بعدوا عن ذلك كله في الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادي وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مستبحرة العمران مترفة النعيم . ولقد أبى شاعرنا العبقري المطبوع بما كان له من رحم موصولة بالفارسية ، ونزعة ظاهرة للشعبية ، وبما كان يتذوقه ويتملأه في هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة ، إلا أن يكون لسان صدق ، فيكون شعره ترجمانَ عصره ، ولا يعدو وصفه ما يقع تحت حسه . وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقة في خشية المتهيبين وتستر المهرّبين ، بل رفع علم الثورة نهاراً ودعا دعوة المصلحين جهاراً ، فحق له أن ينزل من التاريخ الأدبي منزلة المجاهدين ، وأن يُعرف له في الأدب العربي فضلُ المجددين .

وهذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية في حملته على أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعاريين المُحدثين ، وما كان يأخذ به من تشديد النكير عليهم وتعمد التشهير :

إِجْلُ عَلَى الدار بتسليم فما ليها رجعُ تكليم

والعن غرابَ البين بفضاً له
وعُجَّ إلى النرجس عن عَرَفَجٍ،^(١)
واغْدُ إلى الحمْرِ بِأَبَانِهَا
ومثل ذلك قوله :

دَعِ الأطلال تَسْفِيها الجَنُوبَ^(٢)
وخلِّ لراكِبِ الوَجْءِ^(٣) أرضاً
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً
ذَرِ الألبان يشربها أناسٌ
بأرضٍ نَبَتْها عَشْرٌ وطلَحَ
إذا راب الحليبُ فَبُلَّ عليه
فأطيبُ منه صافيةٌ شَمُولٌ^(٤)
إلى أن يقول :

فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الدروب
وبعض هذه القصائد والمقطعات لا يخلو من إشارات عابثة فكهة إلى
بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصة المعلقات، كالإشارة إلى مطلع امرئ
القيس في معلقته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وأمثاله - وهي إشارة

(١) العرفج والشيخ والقيصوم مما ينبت في سهول البادية ، وهي جميعاً طيبة الرائحة

(٢) الجنوب : الريح التي تهب من الجنوب (٣) الوجء : الناقة الشديدة

(٤) الحوب : الإثم (٥) الشمول من أسماء الحمْرِ .

أصلح ما يقال فيها أنها أشبه شيء بنكات الطراف المتحصنين من أبناء
البلد عندنا :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ، ما ضر لو كان جلس ؟
كما أنه في بعضها شديد الوطأة ، عارم الجراءة ، مستجمع الحملة ، كقوله
في هذه الأبيات التي نجد روح الشعوبية ظاهرة فيها وكرهية العرب غالباً عليها :
عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسأل عن خسارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك ، قل لي : « من بنو أسد ؟
ومن تميم ، ومن قيس ، ولقهما ؟ » ليس الأعراب عند الله من أحد
ولا صفا قلب من يصفو الى وقد و بين باك على نوي^(٢) ومنقصد !
ومن طريف ما يأخذه أبو نواس عليهم ويدكره لهم في جملة معايبهم ،
ما كان من جهلهم لهوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنتهم للغزل
بالمذكر ، وذلك في قصيدة مطولة يذم فيها الأعراب ويعرض بعشقتهم ويزرى
بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبد الله بن عجلان ، وفي ختامها يقول :
أما والله لا أشراً^(٣) خلقت به ولا بطراً
لو أن مرقشاً حي تعلق قلبه ذكراً
كان ثيابه أطلعه من أزراره قمراً

(١) الساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي (٢) النوى : الحفير حول
الخيمة يمنع السيل ، والمنقصد مجتمع الرمل والحصى (٣) الأشر : فرط المراح

ومرَّ يريد ديواناً خراج مضمخاً عطرا
 بوجهٍ سابريٍّ^(١) لو تصوب ماؤه قطرا
 وعين خالط التفتير في أحفانها حورا
 وقد خَطَّت حواضنه له من عنبر طررا
 يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا
 لأيقن أن حب المرء د يُلفى سهله وعرا
 ولا سيما وبعضهم إذا حينته انتهرا

ومهما قيل من أن صاحبنا إنما كان في وصف اللذة والخمر تجديده جميعه ،
 فإن صدقه في الترجمة عن نفسه وتصوير بعض نواحي عصره لاشك شفيعه .
 ولقد كان الذي اجتذب أبا نواس إلى بغداد وأخطرها بذهنه ، هو بعينه
 الذي اجتذب سائر أهل الفن والأدب إليها منذ ابتداء عصر المهدي . فقد
 كانت أيام أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور أيام تأسيس الملك وإرساء
 لقواعده ، بالقضاء على الأمويين الأعداء ، والضرب على أيدي الطامعين من
 الأولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينه طلبوا الراحة
 وانبسطت نفوسهم للهو . واللهو في ذلك الحين حاضرٌ قريبٌ ، شديد السحر
 والفتون ، بما دخل عليه من فنون الفرس والروم . فاذا الخليفة الذي عهدناه
 في شخص السفاح والمنصور متشدداً مقتصداً مؤثراً للجد منصرفاً إلى مجالس
 العلم ، قد بدأ في شخص المهدي يتفرج ويستمتع بشيء من اللهو ، وينفق

(١) الثوب السابري : هو الرقيق الناعم

المال على الملّهمين والمنادمين ، ويسمع الغنين جميعاً ، وكانوا في أول أمره يغنونه من وراء ستارة ، فلم يدم احتجاجه هذا عن ندمائه أكثر من سنة ، ثم صار يخرج لهم ، ومن قوله في ذلك « إنما اللذة في مشاهدة السرور والدنو من سرّتي ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ » . وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث يراهم ، وهو لا يشرب لا تخرجاً بل لأنه لا يشتهيّه . وأما هواه فكان بالنساء ، وكان أحبّ شيء إليه الخلوض مع خاصّة ندمائه في الحديث عنهن وذكر الخلوة بهن ، وكان كثير التسرّي والولوع باقتناء الجوارى . وكان بطبيعة حبه للنساء والغناء قد أغرم الغرام كله بالقيان ، فكان يشتريهن ويغالي بهن ، وله في الجوارى والقيان أخبارٌ وأشعار .

وسواء أصبح نظم المهدي لهذه الأشعار أو لبعضها أم لم تصحّ له كلها ، فانه كان يهتزّ للشعر ويجزل العطايا للشعراء . فكثير منذ عهده وفودهم على بغداد من كل صوب ، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها . واجتمع ببابه نفرٌ غير قليل ، نذكر منهم محمد بن المولى وعبدالله بن الخياط وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشجع السلمي ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر . ويكفي في الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لأهله في ذلك العهد من آفاق ، وما درّ عليهم من الأرزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء ورجال الأدب قبله . فقد روى لنا الراون أن قد اجتمع مطيع بن إياس وحماد عجرد ويحيى بن زياد يوماً في أيام المنصور العباسي ، فتذاكروا أيام بني أمية وسعّتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكتهم وطيب دارهم بالشام ،

وعرضوا على جهة المقابلة ما هم فيه ببعداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثرُوا ، وقال في ذلك مطيع بن إلياس :

حبذا عيشنا الذي زال عنا . حبذا ذاك ، ثم لا حبذا ذا
زاد هذا الزمانُ عسراً وشرّاً عندنا إذ أحلّنا بغدادا
بلدة تمطر الترابَ على النسا س كما تُمطر السماءُ الرذاذا
خربت عاجلاً ، وأُخرب ذوالعر ش بأعمال أهلها كلواذا

ولقد انقطع أبو دلالة الشاعر الأسود الكوفي للخليفين أبي العباس السفاح والمنصور ، وكانا يقدّمانه ويستطييان مجالسته ونوادره ، فلم يبلغا في عظمهما ما فيه غناءً ومقنع ، حتى قال أبو دلالة حين أحدث المنصور لبس القلانس الطوال كلمته الشاكية المتهكمة :

وكنا نرجى من إمامٍ زيادةً فجاد بطول زاده في القلانس !
ولما أن أنفذ الخليفة عزّمه في قائد الثورة العباسية الأكبر أبي مسلم الخراساني فقتله ، أنشد الشاعرُ الخليفةَ في محفل من الناس قصيدةً عصماء ، فقال الخليفة مظهرًا في هذه المناسبة غاية التطوّل والانعام ، متعمداً إشعار القوم بما للخلافة من عظمةٍ وسعةٍ ومقدرةٍ : « احتسّم » . فقال الشاعر : « عشرة آلاف درهم » ، فأمر له بها . فلما انصرف الناس وخلا به قال : « إيه ، أمّا والله لو تعديتها لقتلتك » .

ولقد استقل المهدي نفسه وهو وليّ للعهد عطاء المنصور لإبراهيم بن هرّمة حين أنشده قصيدته الالامية التي مدحه بها فكلمه في ذلك : « يا أمير المؤمنين !

قد تكلف في سفره إليك نحوها . ومهما يكن من احتجاج المنصور لذلك ، فالذي لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفي طباعه .

حتى إذا كان عهد المهدي خرجت حياة الفن من الضيق إلى السعة . إذ كان الخليفة مبسوط اليد مبذول العطاء ، لا يفتأ يتسخر على أصحابه ومناذميه ووفوده من أهل الأدب والشعر ، فيأمرهم بالخلع الفاخرة والمراكب الفارحة ، وبالجوائز المضاعفة تبلغ عشرات الألوف من الدراهم تحمل إلى منازلهم معجلة ، مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغه . وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة الشاعر :
بسبعين ألفاً راشني من حباؤه وما نالها في الناس من شاعر قبلي

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعة الرزق أن كان سلم الخاسر يأتي باب الخليفة على البرزون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضّضين ، ولباسه الخزّ والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه .

ثم إن المهدي لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير المتكسبين بالشعر ، بل كان يُسنى الجوائز ويُجزل النفحات لأهل الفن ، حباً في الفن . ومن ذلك ما يرويه حماد الراوية من أنه دخل على المهدي يوماً فقال له : « أنشدني أحسن أبيات قيلت في السكر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف » فأنشده حماد أبياتاً للأخطل . فقال له : « أحسنت » وأمر له بما شرطه ووعد به . فإذا ذكرنا أن المهدي لم يكن صاحب شراب ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بحمال الفن في ذاته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرنا أبا نواس وقد أتمَّ علمه واستوفى فنه وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر إلى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ، ليحظى فيها بما حظى به الشعراء . وإذا كان قد فاته عطاء المهدي ، فلا يفوته عطاء ولده الخليفة الأشهر هارون الرشيد . وما حلَّ الفتى البصري مدينة بغداد ورائت عيناه عظم أمهتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر بها من أسباب النعيم واللذة لمن أسعده الحال وأمكنه المال ، حتى حز في قلبه الحرمان وتنى أن يكون له شأنٌ غير هذا الشأن . وتلفت حواليه فإذا بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابعة ألوف من الفقراء وذوى الحاجة ظاهري الخصاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش في هذه الجنة الناضرة الزاهرة .

عند ذلك أدركت هذا الفتى الماجن عزة النفس ونزت في رأسه سورة الأنفة ، وعصفت في صدره ثورة منكرة ، فهو لن يرضى لنفسه هذا الهوان ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمه على طلب نصيبه من الدنيا وحظه من اللذة ، ولو تأدى به الأمر إلى الخروج على السلطان والتمرد على النظام :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفة يقوم سواء ، أو مخيف^(١) سبيل
بكل فتى لا يستطار جناؤه إذا نوّه الزحفان^(٢) باسم قتيل
لنخمس^(٣) مال الله من كل فاجر أخى بطنه للطيبات أكل

(١) قاطع طريق (٢) الجيشان زحف أحدهما إلى الآخر (٣) تأخذ خمس المال

ولقد كانت أمور الخليفة كلها في ذلك الحين إلى وزرائه البرامكة ،
أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون ويعزلون من شاءوا ،
ويرفعون ويخفضون من رأوا ، ويفرضون من الحقوق ويستقطن ، ويحكمون
في كل شأن بما يرضون . وهم أهلٌ لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأي
وحسن التدبير ، وما أوتوه عنه من ارتياض على حسن السياسة ، ومصانعة
الحوادث والناس . وكانت دورهم بالشماسية - في الموضع المعروف بسويقة
خالد - مناط الآمال ومحطّ الرجال لطلاب المعالي والأقدار الرفيعة من ذوى
الطموح والهمة ، كما كانت سوقُ العلم لديهم قائمةً نافقةً ، وبضاعةُ الأدب
عندهم رائجةً رابجة . ومن ثمة أقبل أبو نواس من أول الأمر عليهم ، ليملا
يديه من نواهم الذى غمر شعراءهم ، وليكونوا له إلى الخليفة سبباً . فمدحهم
ولكنهم لم يحققوا رجاءه كله . وكانت نغمته كلها على جعفر البرمكي ، فأقذع في
هجائه لقلّة عطائه دونهم ، وتعمّده سوء الشهادة في شعره ، ومدافعتة إياه ما استطاع
عن مجلس الرشيد . وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهدي وغيرهم
من الهاشمين وكان يناديهم ويلازمهم . وكان ممن نادىهم القاسم بن الرشيد ،
ولقى القاسمُ منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ففارقه . وكذلك اتصل الشاعر
بالفضل بن الربيع ، ثم انقطع له ولآله بعد أن استوزره الخليفة على أثر
نسبة البرامكة .

ولم يكن النواسى ، مع اعتماده في طلب العيش على الكبراء وأرباب
الدولة ، بالذى يتحاقق ويتهضم نفسه لهم ويستشعر الضعة والصغار في حاجتهم .

فقد كان يمنعه من ذلك شعوره القوي بما للفن الذي يعالجه من شأن
وقيمة ، ومغالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة . ويظهر ذلك أجلى ظهور
فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريبا من دور بني نوبخت بنهر
طابق وعنده جماعة ، فجعل يمرّ بأبي نواس القواذ والكتاب وبنو هاشم
فيسلمون عليه وهو متسكى ممدود الرّجل لا يتحرك لأحد منهم . وإذا جلساؤه
ينظرون إليه قبض رجلية ووثب ، وقام إلى شيخ قد أقبل على حمار له .
وكان الشيخ أبا العتاهية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس . ووقف أبو نواس يحادثه ،
فلم يزل واقفاً معه يراوخ بين رجلية يرفع رجلاً ويضع أخرى ، حتى فرغ
الحديث ومضى الشيخ .

ولقد حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضل بن الربيع .
وسعى في ركاب الخليفة جماعة من الشعراء ، وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس
ومحمد بن منذر من المذكورين بالفسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية
الحج ، ولكنها الفرصة سانحة لمديح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه . وكان ابن
منذر قد هياً في مدحه قولاً أجاد تنميقة وتنوّق فيه ، وكان الرشيد يسأل
عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مراتٍ على مدائحه صلات سنية . فلما كان
يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبدره الفضل بن الربيع قبل أن
يتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادحهم » . وقد كان
الشعر ظاهراً في وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتسكّر وعبس في وجهه .

وأضاف الفضل: « مرّة يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم: أنا بنو الأملاك
من آل برمك »، فأمره الخليفة أن ينشد. فلما أوى، توعده وأكرهه. فأنشد
الشاعر القصيدة، ثم أتبع ذلك بقوله: « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام
مدحتهم، وفي طاعتك، لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نعمتك. ولم أكن
في ذلك مبتدعاً، ولا خلا أحد من نظرائ من مدحهم. وكانوا قومًا قد
أظنني فضلهم وأغواني رفدهم، فأثنت بما أولوا ». فلم يتم قوله حتى كان الخليفة
قد نادى « يا غلام الطمّة على وجهه ». فلطموا الشاعر حتى سدر بصره
وأظلم ما كان بينه وبين أهل المجلس. ثم أمر أن اسحبوه على وجهه وهو يقول:
« والله لأحرمنك، ولا تركتُ أحداً يعطيك شيئاً في هذا العام ». فسحبوه
حتى أخرج وهو لا يعي ما حوله. فإذا بشاب قد وقف عليه ثم قال: « أعزّز
على والله يا كبيرنا بما جرى عليك »، ثم دفع إليه صرّة وهو يقول: « تبلغ
بما في هذه ». فظنها ابن مناذر دراهم، فإذا هي دنانير تبلغ المائة وأكثر.
فسأل ابن مناذر في دهشته وهو لم يبصر بعد من عشوته: « من أنت؟ جعلني
الله فداءك ». فقال هذا الأرمحي: « أنا أخوك أبو نواس، فاستعن بهذه
الدنانير، واعذرني ». فقبلها الرميل المنكوب وقال: « وصلك الله يا أخي
وأحسن جزاءك ».

ونحب أن نرجع بهذه المناسبة إلى ما وقع من ابن مناذر في موسم للحج
سابق، إذ تنازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما أشعر في هزمية لكل

منهما أشدها في وصف الحر ، فحكم ابن منذر للحسين بأن قصيدته أفضل
وأنه أشعر ، فقام أبو نواس منكسراً . فلاشك في أن القارئ يرى معنا
ما تنطوي عليه وقفة النواس بعد ذلك مع زميله من غلبة روح الزملة
والترفع عن الشيانة . ومهما قيل من عطفه من الفضائل الخلقية ، فإن هذم
وحدها فيه شاهدٌ صدق على وفور حفظه من حساسية الإنسان الحي ، وأريحية
الشاعر الذي ولد شاعراً .

وأخيراً نفرغ للكلام عن مبلغ علاقة أبي نواس بالخليفة هارون الرشيد
وفيها موضع خلاف كبير . فالذي يتقرر في الأذهان من مطالعة قصص مثل
« ألف ليلة وليلة » ، وكتب مثل « إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس »
هو أن الشاعر كان أشبه بمضحك للخليفة ، يتفككه بأحاديثه ونوادر أفاعيله .
والمقرر في أسفار التواريخ المعول عليها أن الذي كان مضحكاً للخليفة
ومحدثاً فكها هو ابن أبي مريم اللدني ، فكان الرشيد لا يصبر عنه . وقد
بلغ من خاصته بالرشيد أن بوابه منزلاً في قصره وخلطه بجرمه وبطانته ومواليه
وغلمانته . وكانت له نوادر وأفاعيل غاية في الجرأة يضحك لها الرشيد ويذهب به
الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهذا بعينه ما يحكي عن نوادر
أبي نواس مع الخليفة هارون . وهي حكايات موضوعة أو على الأقل منسوبة
إلى غير صاحبها . وقد قيل في أول اتصال لأبي نواس بالخلفاء أن الرشيد قال
ذات ليلة لهرثمة بن أعين : « أطلب لي رجلاً يصلح للحديث والسمر » . فخرج
هرثمة فسأل فدل عليه . فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من الشعر

بديها، فحسُن موقعه عند الرشيد، وأمر له بعال. وكان ذلك سبب اتصاله به. وكان أبو نواس يحدثه من قبلُ بنوادر الناس، ولكن من غير أن يفكر بأعراضهم، ثم أعرض عن ذلك. فقال له الرشيد ذات يوم: «حدثنا يا أبا نواس». فقال: «لا يحضرني شيء». فقال الخليفة: «بحياتي إلا ما قلت شيئاً». قال: «كان الكذب عملي، واليوم هجرته يا أمير المؤمنين». فضحك الرشيد وقال: «هذا أحبُّ إليَّ من الحديث». ويرَوِي لأبي نواس مع الرشيد نوادر لا حصر لها، وكلامٌ كثير من المجون والخلاعة، وما جريات تدل على حضور بديته وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه.

وقيل إنه إنما حصل على هذه المكناة عند الرشيد بأنه كان إذا بكر إليه سأل خواصَّ أهل بيته عما يكون في نفسه أو يكون جرى له في ذلك الوقت، ثم ينشده أشعاراً لطيفة في مطابقة ذلك فيطيب بها نفساً. فمن ذلك أنه كان يوماً مع الرشيد في قصره، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية من جواريه على غفلة منها فوجدها تغتسل وقت الظهر، فلما رآته تجلّت بشعرها فأعجبه ذلك منها. فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة إلى مجلس سمر الخليفة أشده:

نَضَتْ عنها القميصَ لَصَبَ ماءٍ	فورّد وجهها فرطَ الحياءِ
وقالَتِ الهواءَ وقد تعرّتْ	بمعتدلٍ أرقٍّ من الهواءِ
ومدّت راحةً كالماءِ منها	إلى ماءٍ مُعَدٍّ في إناءِ
فلما أن قضتْ وطراً وهمتْ	على عجلٍ إلى أخذ الرّداءِ

رأت شخص الرقيب على التداني فأسبلت الظلام على الضياء
 وغاب الصبح منها تحت ليل وظل الماء يقطر فوق ماء
 فسيحان الإله وقد براها كأحسن ما يكون من النساء
 فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفاً ونطعاً يا غلام ! ». فقال
 الشاعر : « ولم يا أمير المؤمنين ؟ ». فقال : « أمعنّا كنت ؟ » قال : « لا ،
 وإنما شئ » خطر لي بالبال فقلت . فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة .

هذا وأمثاله يزعمه بعض الكتاب ويقيسون عليه ويضيفون إليه .
 فيجمعون لأبي نواس عند الخليفة هارون منزلة النديم الذى داخله وخالطه
 وانبسط إليه وتكشّف معه ، حتى إنه أخذ المقام الأول بين الندمان وبنى
 لنفسه فى نهر طابق الدور التى لم يبن مثلها عظماء الناس .

وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علماً بأحوال
 أبى نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد
 موضوعات ، وأن أبى نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على
 محمد الأمين ، وأنه ما ملك عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم !
 وأغلب الظن أن الفريقين ذهباً مذهب الغلو فى الوهم ، وأن القولين
 لا يسلمان من المبالغة والسرف فى الجزم . ولكى نتبين وجه الرأى ، يحسن
 أن تتمثل حياة البلاط فى ذلك العهد .

كان هارون فى تفويضه أمور الدولة وتديرها إلى البرامكة يجد من وقته

الفراغَ للتملّ بنعيم الأسرة ، بين زوجاته وأخصّهن بالمكانة عنده زبيدة ،
وأمهات أولاده اللاتي يزدن على العشرين ، وجواريه وهن زهاء الألفين تعرف
منهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وأنهم عندنا ذكراً الأمين والمأمون
وسائر أفراد بيته . وكذلك وجد الخليفة الفراغ للجلوس الى أهل الفقه
والأدب ، وللخلة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب . وقد اشتهر بشرب النبيذ
الذي كان يرخص أهل العراق في شربه . وفوق هذا جميعه كان يحتفل بإحياء
أبيه ما عُرف في بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام المغنين
والمغنيات على أنواع المعازف والملاهي .

ولا عجب فأولاد المهدي كلهم من محبي الموسيقى لما كان يجتمع في قصر
أيهم من القيان ، وطول ما تردّد في مجلسه من الغناء والألحان . وكان
هارون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان
مما يزيد في سروره بالشعر وطربه عليه أن يعمل فيه ما يوافقه من اللحن
ويُغني له . ولكنه على كل حال كان من أحكم الناس بصرّاً بالشعر وأحکمهم
تذوقاً لجيّد وأشدّهم تأثراً به . فلا يمكن وهارون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى
عليه شأن شاعر كأبي نواس وألا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه .
وإذا كان العقول لا يكفي ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه إسحق
الموصلی من تقديم الرشيد لشاعر ناعم ما كان من مماراة جعفر البرمكي في أمره
وتعصب إسحق نفسه عليه وقتئذ لشيء جرى بينهما حتى صار لا يعدّ أبانواس

البتة ولا يرى فيه خيراً . ونزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح ، قال :

قال لى الرشيد : يا اسماعيل ! أبغى وصيفةً مايحةً مقدودة شكلة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عالمة ، تسقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلاً . فقلت : « ياسيدى ! على الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هذا العيَّار - يريد أبا نواس - وامثل فيها ما حدَّ فى مثلاً لك » . قلت : « ياسيدى ! فما قوله ؟ » فقال الرشيد :

« من كف ساقية ناهيك ساقية
كانت لرب قيان ذى مغالبة
فقد روت ووعت عنهن ، واختلفت
حتى إذا ما غلاما الشباب بها
وجشت بحفى اللحظ فاجمشت
تمت فلم ير إنسان لها شهاً
تلك التى لو خلت من عين قيمها
وأقطع مما تقدم فى تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفته لفضله ومغالاته بقدره
ما رواه يوسف بن الداية ، قال : غاب أبو نواس عنا وعن إخوته غيبة طويلة
متصلة فلم نعرف له خبراً . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً ، حتى مضى نحو
من سنة ، فظن أنه قتل . وبلغ ذلك الرشيد فقال : « والله إن صح أنه قتل
لأقتلن قتاله ولو كان محمداً ولدى . انظروا كل من كان هجاء من الناس

فى حسن قد وفى ظرف وفى أدب
بالكشخ محترف ، بالكشخ مكتسب
ما بينهن ومن يهوين بالكتب
وأفعمت فى تمام الجسم والقصب
وجرت الوعد بين الصدق والكذب
فيمن برا الله من عجم ومن عرب
لم أقص منها ولا من حبها أربى »

فاكتبوا اسمه وارفعوه إلى . فارتجت لذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول ، إذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا علي ! قد غبت عنا هذه الغيبة فغممتنا وظننا بك الظنون » . قال : « كنت في موضع أرتضيه وأشتهيه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقول الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحد من إخوانه إلا عدله ، وقالوا : « إن في هذا تعريضا لنفسك للآفات » . فأنشأ يقول :

إني لفي شغل عن العالمين بالراح والريحان والياسمين
عند غزال حسن وجهه قلبي خميس بهواه رهين

ونذكر الى جانب ذلك حديث حسين بن الضحاك الشاعر - وقد كان وأبو نواس ترابين نشأ في مكان واحد وتأدبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين - قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلي وأقام مدة ، واتصل بي ما آل إليه أمره ، وبلغني إشار السلطان وخاصته له ، فخرجت عن البصرة الى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت في الشعراء ، وهذا كله في أيام الرشيد ، إلا أنني لم أصل إليه » .

وأخيراً ما نقله بعض الرواة عن مطيع - وكان خادماً للبركة ثم دخل بعدهم في خدمة الرشيد - قال : كنت واقفاً على رأس الرشيد إذ دخل أبو نواس (وذلك بعد قفوله من رحلته الى مصر كما سيأتي) فقال له الرشيد : أنشدني قولك في الخصيب « محضتكم يا أهل مصر نصيحتي » فأنشده إياها ، فلما بلغ قوله :

فإن يك باقٍ إنك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

قال له الرشيد : ألا قلت : « فباق عصا موسى بكف خصيب » ؟ فقال الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لي » .

وأحسننا بعد هذا الذي سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين إذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال البرامكة .

ولكن الذي لا نرجحه ونستبعده كل الاستبعاد هو ملازمته الرشيد ومناذمته له على الوجه الذي يقولون . فقد كان خلفاء بني العباس حتى ذلك الحين - مع تفرّج من تفرّج منهم ببعض اللعب واللهو - محافظين على وقار الملك . كما أن هوهم لم يكن كله لهو ترف . فقد كان المهدي مولعاً بالصيد واللعب بالديوك والصوالة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصولجان في الميدان ، إلى جانب لعبه بالكرة والطبّاطب ورميّه في البرجاس بالنشاب مع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم انهم حتى في خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذّل وطرح الاحتشام . فالمهدي كان شديد الحب للنساء ، ومع هذا كان ينهى بشاراً عن الفحش في الغزل ، وإذا حنّ إلى سماع شيء منه قال لبشار : « قل في الحب شعراً ولا تُطِل ولا تُسمِّ أحدًا » وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبي العتاهية في عتبة متغزلاً :

ألا إن ظبياً للخليفة صادني ومالي على ظبي الخليفة من عدوّي
غضب الرشيد وقال « أسخّر منا ، فعبت ! » . وأمر بحبسه وطال في الحبس مكثه . وكان المهدي يسمح لمناذميه في مجلس السماع أن يشربوا

وإن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى إبراهيم الموصلى يشرب فى منازل الناس ، ويتبدل معهم ويحييه منتشياً ، أمر به فضرِب وحُبس . والرشد على حبه للتعلم واستمتاعه بالوان الترف كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحج ومعه مائة من الفقهاء ، وإذا لم يحج أحج ثلثائة رجل بالنفقة السابعة والكسوة الظاهرة . وكان يكره الخوض والمراءى فى الدين ، وتسرع دمعته حتى تخضل لحيته لوعظ الواعظين .

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح فى العقل اتخاذهم مثل أبى نواس جليساً ملازماً ، وإنما جاز لأبى نواس أن يكون ذلك النديم حين ولى الخلافة محمد الأمين .

ولما كان الرشيد قد أصبح بعد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه ، والمطلق اليد فى خزان الدولة والمتحكم فى رقاب الرعية ، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وإن لم يكن فى طبقتهم فى هذا الباب قد كانت له مع ذلك فى المديح أبيات يمدونها من غرر الشعر وفرائده .

وقد نظم الشاعر فى انتصارات جيوش الخليفة فى آسيا الصغرى على جيوش الروم - حين قطع صاحبهم نقفور الجزية - قصيدة فى مدح الرشيد يقول فيها :

إِنى حَلَفْتُ عَلَيْكَ جَهْدَ أَلِيٍّ ^(١) قَسماً بكل مقصّرٍ ومحلقٍ

لقد اتقيت الله حقَّ تقاته وجهدتَ نفسك فوق جهد المتقي
وأخفتَ أهلَ الشرك حتى إنه لتخافك النُّظفُ التي لم تُخلَقْ
وصناعةُ الشعراءِ إن أنفقتَ^(١) نفقتَ، وإن أكسدتها لم تنفقْ

وفي سنة ١٨٩ تمَّ للرَّشيد أخذُ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين
فالمأمون فالمؤمن، واحداً بعد الآخر. فقال شاعرنا في ذلك :

تبارك مَنْ ساسَ الأمورَ بعلمه وفضلَ هارونا على الخلفاءِ
نزالٌ بخيرٍ ما انطوينا على التقى وما ساسَ دنيانا أبو الأمانِ
ولما أن شخصَ هارون الرشيد إلى بلاد الروم لعشرٍ بقين من رجب عام
١٩٠ واتخذَ قلنسوةً يلبسها مكتوباً عليها (غاز - حاج) تبارى الشعراء في
ذكر ذلك، فقال أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يُردُّه فبالحرمين أو أقصى الثغورِ
ففي أرضِ العدوِّ على طِمِرٍ^(٢) وفي أرضِ الترفُّ فوق كورِ^(٣)

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا في ذلك :

هارون ألفنا ائتلافَ مودَّةٍ ماتت لها الأحقادُ والأضغانُ
في كلِّ عامٍ غزوةٌ ووفادةٌ تنبتُ بين نواهما الأقرانِ^(٤)
حجٌّ وغزوةٌ مات بينهما الكرى باليجمات شعارها الوخدانِ^(٥)

(١) روجتها (٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير
(٤) تنقطع حبال المطايا (٥) اليجمات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير .

والظاهر أن الشاعر لم يكن موفقاً في هذا الميدان ، وأنه كان لغيره فيه قصبُ الرهات ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من ماجريات أمره . فغزم على الخروج إلى مصر .

وكان الرشيد بعد نسكبة البرامكة قد أراد استعمال قومٍ لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلدهم من العمال على الأمصار الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك في ١٩ شعبان سنة ١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصيب بن عبد الحميد العجمي الذي تنسب إليه منية بني خصيب المعروفة اليوم في صعيد مصر بالنيا . وكان الخصيب هذا رئيساً في أراضيه ، فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي ، ثم انتقل إلى إمارة الخراج على مصر كما روينا . والذي عليه الرواة أن الخصيب كتب إلى أبي نواس يستزيه وهو من خواصه فخرج إليه . وخرج في وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبي نواس ، حتى اجتمعوا بالرقّة . فقال بعضهم لبعض : « هذا أبو نواس يمشي إلى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحدٍ معه ، فارجعوا عن قُرب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار إليهم مسامحاً ، ثم قال لهم : « قد بلغني ما عزمتم عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فإني والله لأبدأ إلا بكم » . فشكروه ، وسكنوا إلى قوله ، ومضوا حتى قدموا مصر . واتصل خبر أبي نواس بالخصيب ، فجلس له جلوساً عاماً في مجلس جليل . ودخل أبو نواس إليه ، والشعراء في دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيها الملك المؤمل قد استزرت عصبة فأقبلوا
وعصبة لم تستزهم طفلاً رجوك في تطفيهم وأملوا
والرجاء حرمة لا تجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصب قوله وكل من حضره ، وقال له الخصب : « من
شريكك ؟ » فعرفه أبو نواس خبر الشعراء ، فقال : « اجلس فقد رهم
صلاتهم ، على حسب مقاديرهم في نفسك » . فقدّر أبو نواس لهم صلاتهم ،
وعرضها عليه ، فوقع بإطلاقها ، فأطلقت من وقتها . وقال له : « اخرج ففرقها
عليهم ، واصرفهم » ففعل ذلك ، وعاد إليه .

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الإكرام وقرّبه ورفع موضعه .
ولما استقرّ به المجلس استنشده وكان عنده جماعة من الشعراء . فقال أبو نواس :
« هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسنّ . فأذن لهم في الإنشاد ، فإن كان
شعري نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت » . فاستنشدهم الأمير فأنشدوا
المدائح فيه . فبتسم أبو نواس وقد رأى أشعارهم غير مقاربة لشعره . ثم قال :
أشذك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تتلقف ما يأفكون . فقال :
« هات » . فأنشده قصيدة طويلة من بلاغته مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسور ما يرّجى لديك عسيرٌ
وفي القصيدة عدا المديح المعتاد وصف للقافلة السيارة ورحلته معها من

العراق عابراً البيداء إلى البلاد الشامية قاصداً مصر . وقد أتى الشاعر في هذه القصيدة على المنازل التي مرَّ بها والبلاد التي حلَّ فيها .
ولقد اهتزَّ الخصب لما جاء على لسان الشاعر من المديح وأمر له بالجوائز السنية .

ويقال ان المصريين شعبوا في هذه الأثناء على الخصب لزيادة الأسعار واشتداد الغلاء . وماج الناس في المسجد الجامع وقد تواعدوا أن يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصب نفسه وهو على شربه وعنده أبو نواس . فقال الشاعر :
«دعني أيها الأمير أكرمهم» . فقال الأمير : «ذاك إليك» . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيه ، وحول وجهه للناس وعليه ثياب مشمرات ، فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تشبوا وثب السفاة^(١) فتحملاوا على حدّ حامى الظهر غير ركوب^(٢)
فإن يك باقى إفاك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصب
رماكم أممير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب
فلما سمعها الجمع تفرّقوا فلم يبق منهم أحد .

ونظم الشاعر أكثر من قصيدة في الخصب ، نختمها بقوله :

أنت الخصب وهذه مصر فتدققا فكلا كما بحر
النيل ينعش ماؤه مصرأ ونداك ينعش أهله الغمر

وقد أصدر الخليفة في ٧ رجب سنة ١٩١ أمره لواليه على مصر الحسين بن حميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج. فانتهت بذلك إمارة الخصيب. وعليه تكون إمارة الخصيب على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠ إلى ٧ رجب سنة ١٩١ وتكون السنة التي قيل ان أبا نواس قضاه في ربوع مصر واقعة في هذه المدة. ومدح أبو نواس في مصر آل حديد وغيرهم ، فمن حرموه عاد فذمهم على عادة الشعراء . وكان يستحب من مصر جوها السجسج ويقول غابطاً لأهلها « إن دنياكم مستوية لا حر ولا برد عليكم . وإنكم تتصرفون في حوائجكم سائر نهاركم في أوله وآخره وفي وسطه ، وليس هذا لأحد غيركم » ، إلا أنه كان ممتلي القلب رعباً من النيل لما سمعه من مزعجات القصص والأخبار عن تماسيحه . ولا نشك في أنه قضى المدة التي قضاه في مصر لم تنحدر به مركب فيه ، ولعله لم يعرف حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه في بعض شعره بأنه من خوف التماسيح لم ير النيل رأى العيان اللهم إلا في القلال والكيزان :
أظهرت للنيل هجراناً ومقليةً إذ قيل لي إنما التماسح في النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كشب فما أرى النيل إلا في البواقي
كما أنه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمر بها إلا ما كان يحمل إلى الخصيب . وقد سقط من الشعر الذي قاله بمصر والشام كثير . ويحكى أنه لما انصرف من مصر مرّ بحمص فرأى كثرة خماريها ، وجودة الشراب بها ،

وترك الشاربين لها كتمان شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه منه ، فأقام بها مدة مغتبطاً ومصطبجاً . ثم مرّ بعانة فسمع اصطخاب الماء في الجداول ، فأقام فيها ثلاثاً يشرب من شرابها ويتغنى بقول الأخطل :

من خمر « عانة » ينصاع الفؤاد لها بمجدول صخب الآذنى موار
فلما دخل إلى الأنبار تسرع إلى بغداد وقال : « ما قضيت حق قطربل
إن لم أبطؤها » . فعدل إليها ، فأقام ثلاثاً حتى أتلف فضلة كانت معه من
نقته وباع رداءً معلماً من أردية مصر . وقال عند انصرافه من قطربل :

طربت إلى قطربل فأتيها	بألف من البيض الصباح وعين
ثمانين ديناراً جياداً أعدّها	فأتلفتها حتى شربت بدني
رهنت قميصاً سابرياً وجبة	وبعت إزاراً معلّم الطرفين
وقد كنت في قطربل إذ أتيتها	أرى أننى من أيسر الثقلين
فروحت عنها معسراً غير موسر	أقرطس في الإفلاس من مثنين
يقول لى الخمار عند وداعه	وقد البستنى الراح خفّ حنين
« الأرح بزى يوم رحت مودعاً »	وقد رحت منه يوم رحت بشين

وعلى هذه الحال من الشوق إلى حياة بغداد ، عاد شاعرنا إليها ليستأنف

فيها باطله ولهو بعد طول حنينه في مصر إليها :

إذا ذكرت بغداد لى فكأنما تحرك فى قلبى شياة سنان

وفى هذه الحقبة كان الخليفة هارون الرشيد يزيد مع السنّ والعة شدة

وترمّماً . وفوق ذلك فقد ذهب البرامكة ولم يغن عداّتهم غناءهم ولم يقوموا مقامهم ، فكان هو الناهض وحده بأعباء الحكم وضبط الأمور وتوجيه الجيوش لحرب الروم وقع الفتن في الأطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على الرشيد من السرعة إلى الغضب وإنزال النقمة .

وقد أصاب الشاعر السكير الماخن من ذلك الكثير . فخبسه الخليفة في المطبق أكثر من مرة لشربه الخمر مجاهراً بها متهتكاً فيها . فكان يقضى وقته يعبت مع من يكون معه في الجلس ويلعبه الشطرنج والنرد . واتهم أبو نواس كذلك أكثر من مرة بالزندقة . من ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة . فدخل ، فقام في الصف الأول ، فقرأ الإمام الآية « قل يا أيها الكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه « لبّيك » . فلما قضيت الصلاة اندفع إليه المصلون وليبوم . وانتهى أمره إلى أن دفع به إلى حمدويه صاحب الزنادقة . ولولا علم حمدويه أنه ماخن وليس هو بحيث يُظنّ ، لكان قد قضى عليه .

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة ترات عند أبي نواس لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل بعدها إلى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلساً ، وأفاض من حضره في ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، إلى أن اتصل بالذكر بأبي نواس ، فغمز عليه سليمان بن أبي جعفر ،

فقال : « يا أمير المؤمنين ! كفرته بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة » . وقد كان نمتى إلى الرشيد من خبره شىء . فقال : « يا عم ! هل تأثر عنه من ذلك شيئاً ؟ » . قال : « قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظرًا في الدين ما الأمر ؟ لا قدر صح ولا جبر !
ما صح عندى من جميع الذى يذكر إلا الموت والتبر
ثم قوله أيضا :

باح لسانى بمضمر السر
وليس بعد المات مرتجع
وذاك أنى أقول بالدهر
وإنما الموت بيضة العقر

فاستشاط الرشيد غضبًا وطار شققًا وقال : « على بابن القاعة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « إن أذن لى أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع وأقطع مما أنشده أبو أيوب » . قال : « هات ! » قال : « قوله فى غلام نصرانى :

تمر فاستحييك أن أتكلما
ويهتر فى ثوبيك كل عشة
ويشيك زهو الحسن عن أن تسأما
بحسبك أن الجسم قد شقة الضنى
قضب من الريحان شب منعبا
أليس عظيمًا عند كل موحد
وأن جفونى فيك قد ذرفت دما
فلولا دخول النار بعد بصيرة
غزال مسيحي يعذب مساما
عبدت مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه فقال : « يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك » . قال : « هات ! » فأنشده قوله فى غلام نصرانى آخر :

وملحةً بالعذل ذات نصيحةٍ ترجو إجابة ذى مخونٍ مارقٍ
بكرت تبصّرني الرشاد وهمتي غير الرشاد ومذهبي وخلائقي
فأجبتها: «كفى ملائك إني مختار دين أقتة وجثاقي
والله لولا أنني متخوفٌ أن أبتلى

وقطع الإنشاد. فقال له الرشيد: «بماذا ويلك!». فاستعفاه، فقال:
«ويلك! بماذا» فقال:

..... بإمام جورٍ فاسقٍ

فضج المجلس بأهله، وأنكر الرشيد نفسه، ثم قال: «امض». فقال:

لتبغته في دينه ودخلته ببصيرة مني دخول الوامق
إني لأعلم أن ربي لم يكن ليخصهم إلا بدينٍ صادقٍ

فقال الرشيد للفضل: «برئت من المنصور إن لم يبت هذا الكلب في
المطبق لتنكرني قولاً وفعلاً». وكان أبو نواس نعى إليه الخبر فساخ في
الأرض. فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك، فوجد، فأودع
المطبق. ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها إلى أن أطلق، فقال في ذلك:

الله فرج لي برأى في الفضل من حلق الكبول
وأقاني عنت العشا ر وقد أيست من المقيّل

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ إلى الرشيد من قوله يفتخر بقحطان التي يدعيها،
ويسب عدنان ويهجوها في قصيدة طويلة يقول فيها:

فانخرُ بقحطان غير مكتئبٍ
فخاتمُ الجود من مناقبها
ولا ترى فارساً كفارسها
إذ زلت الهامُ عن مناقبها
واهجُ نزاراً وأفرِ جلدها
وهتكِ السر عن مثالبها

وكانت العصبية لا تفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم قراء التاريخ العربي . وكانت في ذلك العهد تهيج بالشام خاصة ، وقد بلغت في بعض أطوارها هيجاً تشب لهوله الولدان ، وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة يلاقى كل مرة عنتاً في إخمادها ، يوجّه لذلك القواد والعسكر الكشيف ، وكانت مع ذلك لا تسكن حتى تعود . فلما بلغت إلى سمع الخليفة قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر استثنائه للنبي محمد دون سائر قريش « ذات المتاجر » في هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه إلى أن شاعر الخليفة يمان من ناحية جدته :

أحبُّ قريشاً لحبِّ « أحدها » وأعرفُ لها الجزلَ من مواهبها
إن قريشاً إذا هي انتسبتُ كان لها الشطر من مناسبها
فأم مهديّ هاشم - أم موسى الخير - منا ، فافخر وسام بها
إن فاخترتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من محاسبها
وإنها - إن ذكرت مكرمةً - جاءت تجارتها بغالبها

وإذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة ، فذلك أن الأمر كان يعدو شخص الخليفة الهاشمي القرشي إلى تعريض البلاد للفتن الداخلية .

فأمر الخليفة بالشاعر المنكود فألقى في غيابة المطبق انتظاراً للموت فبقي فيه دهرًا . فجعل يتشفع بالوزير الفضل بن الربيع وهو لا يستطيع له شيئاً . فقال متحسراً لما صار إليه ، متندماً لما تورط فيه ، متسخطاً على الفضل :

على مَرَكَبِي مِنَ السَّلامِ ، وَبَزَّتِي وَغَدَوَاتٍ هُوَ قَدْ فَقَدَنَ مَكَانِي
فَلَوْ أَنَّ خِدْنِيَّ الْقَرِيبِينَ أَبْصَرَ خَضُوعِيَ لِلسَّجَّانِ مَا عَرَفَانِي
وَلَوْ أَبْصَرَانِي وَالْقِيُودَ تَقْوَدُنِي وَمَشِيَّ إِلَى الْبُؤَابِ بِالنَّجْشَانِ ^(١)
لَحَيَّ اللَّهُ مِنْ أُمْسَى يَرْشَحُ نَصْرَهُ بِفِكَ إِسَارٍ مِنْهُ عِنْدَ يَمَانِي
وَمَا لِي وَقَحْطَانًا وَبَثَّ مَدِيحَهَا وَنَصَبِي لَهَا نَفْسِي بِكُلِّ مَكَانٍ
فَإِنْ أُمْسٍ لَا تُخْشَى لَسِيفٍ فَتَكَّةُ فَلَا تَأْمَنُ يَا (فَضْلُ) فَتَكَ لِسَانِي
وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَرَاكَ كَجَعْفَرٍ ^(٢) وَنِصْفَاكَ فَوْقَ الْجِسْرِ يَقْتَسِمَانِ

وكتب إلى الحسين الخادم مولى هارون متزلفاً يرجو وساطته ، ويعلم الله توبته وإنبائه :

تَلَقَّى الْمَرَاتِبَ لِلْحُسَيْنِ ذَلِيلَةً وَإِذَا سِوَاهُ يَرُومُهَا تَتَصَعَّبُ
إِنَّ الْإِمَامَ إِذَا اجْتَبَاكَ لِسَرِّهِ لَمُسَدَّدٌ فِيمَا أَتَى وَمُصَوَّبُ
لَمْ يَبْلُ مِثْلَكَ عَفَّةً فِيمَا بَلََا وَحِزَامَةً فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْزُبُ
وَخَلَطْتَ خَوْفَكَ لِلْإِلَهِ بِخَوْفِهِ فَعَلِمْتَ مَا تَأْتِي وَمَا تَتَجَنَّبُ

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة في الثمن بقصد التفرير وإيقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكي الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل نصف جثته على الجسر الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط

أبلغ هُدَيْتَ - إلى الإمام رسالةً عني بأني بعدها أَسْتَعْتَبُ
 وشهادتي أني حليفُ عبادةٍ فابلوا على الأيام ذاك وجربوا
 وكتب إلى عبيد الخادم مولى الملكة زبيدة :
 جَعَلْتُ عُبَيْدًا دُونَ مَا أَنَا خَائِفٌ وَصَيَّرْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ يَدِ الذَّهْرِ
 أَشَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَقَالُوا أَبُو عَمْرٍو لَهَا وَأَبُو عَمْرٍو
 ثُمَّ التَّجَأَ إِلَى الْأَمِيرِ الْحُسَيْنِ بْنِ عِيسَى بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ النَّصُورِ مُسْتَعِثًا
 مُسْتَصْرَحًا :

رَفَعَ الصَّوْتَ فَنَادَى يَا أَبَا عِيسَى الْجَوَادَا
 كُنْ عَمَادًا - يَا ابْنَ مَنْ كَا نَ غِيَاثًا وَعَمَادًا
 وَتَدَارِكُ جَسَدًا قَدْ مَاتَ أَوْ قَدْ قِيلَ كَادَا
 قُلْ لَهُ إِنْ قَالَ « هَلْ تَا ب ؟ » « نَعَمْ تَابَ ، وَزَادَا »
 وَاضْمِنْ التَّوْبَةَ عَمَّنْ كَلِمَاتِ أَطْرَاكِ عَادَا
 وَلَمَّا أَعْيَيْتَهُ الْحِيلَةَ وَلَمْ تَنْفَعِ الشَّفَاعَةُ ، تَوَجَّهَ إِلَى الْخُلَيْفَةِ نَفْسَهُ ضَارِعًا
 مُسْتَغْفِرًا ذَا كَرًّا مُحَامِدَةً مَعْدَدًا مَا ثَرَهُ :

بَعْفُوكَ - لَا بِجُودِكَ - عَذْتُ لَا بِلَ بِفَضْلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 فَلَا يَتَعَذَّرَنَّ عَلَى عَفْوٍ وَسِعَتْ بِهِ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ
 فَإِنِّي لَمْ أَخْنُكَ بِظَهْرِ غَيْبٍ وَلَا حَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّ أَخَوْنَا
 بَرَكَ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَحَصْنًا دُونَ بَيْضَتِهِ حَصِينَا
 لَقَدْ أَرَهَبْتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى تَرَكْتَهُمْ وَمَا يَتَذَمَّرُونَا

تزورهم بنفسك كل عام زيارة واصل للقاطعينا
ولو شئت اكتفيت إلى نعيم وقاسي الأمر دونك آخرونا
فشقق حسن وجهك في أسير يدين بحبك الرحمن دينا
إذا ما الهول حل بدار قوم فليس لجار مثلك أن يهونا
ولكن الخليفة كان في شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك لمداركة
الفتوق قبل اتساعها في أطراف ملكه ، ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة
عليه لحرب رافع بن ليث الثائر في خراسان مصطحبا معه المأمون الذي جعلت
له الولاية عليها ، وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالمؤمن على الرقة وكان
الخليفة قد اتخذها مقرا له ونقل إليها خزائنه في ذلك الحين ، واستخلف على
بغداد عاصمة الخلافة ولي عهده والخليفة من بعده محمدا الأمين .

نديم الأمين

كان محمد الأمين ببغداد حين ورد من صاحب البريد خبر وفاة والده العظيم هارون الرشيد في غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، في قرية بالقرب من طوس ، بعلة في حشاه كانت لا تزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناس كلهم . وتسلم الخليفة الجديد الخاتم والتضيب والبردة ، وتحول من قصر الخلد وكان نازلاً فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر أبي جعفر . وأمر الناس بالحضور يوم الجمعة ، فحضروا فصلى بهم وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من جلة أهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبل عبد الله المأمون البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبه الى الخليفة بالتعظيم والمدايا إليه من طرف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزان وغيرها الى بغداد ، فتلقها ابنها الأمين خارج المدينة في جميع من كان بالحضرة من الوجوه ، وأنزلها معه في قصر الخلافة .

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضل جميع ما في المعسكر مما أوصى به الخليفة الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغداد وهو يقول : « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يُدْرى ما يكون من أمره » . وأغرى القواد والجند بالرحيل واللاحق بالأمين ، ففعل أكثرهم محبةً منهم بالحق بأهلهم ومنازلهم . فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفة الجديد ما قدّمه فاستوزره .

وكان الأمين قد تلقى في صباه على الكسائي وعلى بن المبارك الآخر وغيرهما من المؤدّبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فأقرّوه القرآن ، وعرفّوه الآثار ، وعلمّوه السّنن ، وروّوه الأشعار ، وبصّروه بمواقع الكلام وبديّته ، مع ما يجب على الخليفة العباسي من تعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، وما الى ذلك مما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه ، ومع ذلك كانت طبيعة اللهو هي الغالبة عليه ، وظلّ على ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والإماء في رأيه . ولولا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بني هاشم بأهوائهم إليه تعصباً لوأد الهاشمية على ولد الفارسية ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر للمأمون .

فلما أن أفضت إليه الخلافة ، أصبح صبيحة السبت — أي بعد البيعة له في بغداد بيوم ، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر الخلافة في المدينة للصوالة واللعب . ولما أن جاءت الكتب من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتبّت له

الأمر واطمأن باله من ناحية الملك ، وجّه في طلب الملّهيّن وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخصيان وأبتاعهم وغالى بهم ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن ، وصيّر الخصيان خلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيّه ، وفرض لهم فرضاً سّماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سّماهم الغرابية ، وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه مع هؤلاء الخصيان في المنادمة والشرب . وفي ذلك قال بعض الشعراء :

لهم من عمره شطرٌ وشطرٌ يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظٌ سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقياً فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس^(١) لغزّ على المقيم بدار طوس

وبديهي ، وقد جلس الخليفة هذا المجلس للشراب بين الندمان والخصيان أن يجري في الجماعة ذكرُ المجون والمجان ، وأن تروى - فيما هم بسبيله - طرائف النوادر والأخبار ، وننشد لطائف الأشعار . ولا نزاع في أن النواصي كان أشهر خلعاء ذلك الزمان وأجراهم شعراً على كل لسان ، فلا جرم يتردد في المجلس اسمه ويُسْتَعَاد شعره . والخليفة لأشك عندئذ ذا كرّه ، فقد دخل عليه مع الكسائي في بعض درسه ، وكان يغشى حضرته ويشترك في منادمته أيام إمارته . فلما أن سأل الخليفة عنه ، قيل له : « محبوس لما يزل في المطبق » فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى إسحق بن فراشة وسعيد بن

(١) يريد الرشيد لدفته بطوس

جابر أخو الخليفة من الرضاة إلى أبي نواس في محبسه فقال له يُطَمِّنَانِهِ :
 « إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال ليس عليه بأس ». فنظم الشاعر أبياتاً
 بعث بها إليه يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ ونام السامرون ولم يؤاسوا
 آمين الله ، قد مُلِكتَ مُلْكاً عليك من التقى فيه لباس
 ووجهك يستهلّ ندَى فيحيا به في كل ناحية أناس
 كأن الخلق في تمثالِ روحٍ له جسد ، وأنت عليه رأس
 آمين الله ، إن السجن بأسٌ وقد أرسلتَ ليس عليك بأس
 فلما أشدت الأبيات للخليفة في مجلسه بالعشيّة قال : « صدق ، علىّ به »
 فغنى به في الليل فكسّرت قيودَهُ وأخرج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول وهو
 مائل بين يديه :

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ صيغَ من جوهر الخلافة بحثنا
 يا آمين الإله يكلؤك الاله ه مقماً وظاعناً أين سرتنا
 إنما الأرض كلها لك دارٌ فلك الله صاحبٌ حيث كنتنا
 وسرّ الأمين به وخلع عليه وجعله من ندمائه .

وَمَا يَجِبُ ذِكْرُهُ لِأَبِي نَوَاسٍ شَاهِداً عَلَى طَيْبِ نَفْسِهِ ، وَسَلَامَةً صَدْرِهِ
 مِنَ الضَّغْنِ الَّذِي يُعْمَى وَيُصَمُّ ، وَارْتِفَاعِهِ بِحُكْمِهِ عَنِ الْهَوَى ، أَنَّهُ لَمْ يَغَيِّرْ رَأْيَهُ
 فِي الرِّشِيدِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْ حَزَنِ عَلَيْهِ مَعَ حَبْسِهِ إِيَّاهُ ، وَلَمْ يَجْعَدْ إِحْسَاناً

أسلفه إليه وأسداه . ففراه لا ينسى وهو يهني الخليفة الجديد ويظهر سروره به
أن يبكي الخليفة الراحل ويذرى عليه دمه :

جَرَّتْ جوارٍ بالسعد والنحسِ فنحن في مآثم وفي عُرُسِ
القلب يبكي ، والسنُّ ضاحكة ، فنحن في وحشة وفي أنسِ
يُضحكننا القائمُ الأمينُ ، ويُبكيُنَا وفاةُ الإمامِ بالأمسِ
بدران ، بدر ضحى ببغداد بالـ بخلد ، وبدر بطوس في رمسِ
وقد عاد ثانية إلى رثائه في قوله :

الناس ما بين مسرورٍ ومحزونٍ وذى سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونٍ
من ذا يُسرُّ بديناه وبهجتها بعد الخليفة ذى التوفيقِ هارونٍ
كما قال يعزى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت مولاه القديم
بحياة مولاه الخليفة الجديد ، بما لا يخرج عن قول أبناء زماننا « مات الملك ،
ليحيى الملك » :

تعزُّ أبا العباس عن خير هالكٍ بأكرم حيٍّ كان أو هو كائنُ
حوادثُ أيامٍ تدور صروفها لمنَّ مساوٍ مرةً ومحاسنُ
وفي الحى بالملت الذى غيب الثرى ، فلا أنت مغبون ولا أنت غابنُ
وكان الفضل ينزل في بغداد في الشارع الأعظم بازاء درب السقائين ،
وقد صارت الأمور كلها إليه وفوض إليه الخليفة ما وراء بابه ، فهو الذى يولى
ويعزل ويحل ويحلب ويعقد عنه . واحتجب الأمين ، وفي ذلك يقول شاعرنا
يمتدح الفضل :

لعمر ك ما غاب (الأمين محمد) عن الأمر يعني به إذا شهد (الفضل) ولولا مواريث الخلافة أنها له دونه ما كان بينهما فضل لأن كانت الأجساد فيها تباينت فقولها قول وفعلها فعل أرى (الفضل) للدنيا وللدن جامعا كما السهم فيه الريش والفوق والنصل وذهب الأمين في الاحتجاب حتى عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته وطوره ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلاذى وباب الأنبار وغيرها ، ونافس في ابتياع قره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطيور . وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وانقطع عن تدبير المملكة مشغلا عنها باللهو واللعب ومعاشرة الحثان ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خشيانه وجلسائه ومحدثيه .

ولما أن رأت الملكة والدة زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين للخصيان ورفع منازلهم مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ، أرادت صرفه عن ذلك ، فاتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فاستقدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن إليه ، فاختلن بين يديه ، فاستحسنهن واحتذبن قلبه وأبرزهن للناس في مجالسه . فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المظومات وألبسوهن الأقبية والمناطق . وامتلات بغداد بهؤلاء الفتيات اللواتي كانوا يسمونهن «الغلاميات» .

وكان للأمين كأبيه الرشيد تولعٌ بالغناء ، مع الفارق في وقار الوالد ونزق ولده . وكان يُهَيَّأ له في قصر الخلد مجالس غناء يُتَغَنَّى فيها ، ويُرفع له دكانٌ عالٌ يُفرش له ويُبسط عليه بساطٌ زرعى ، وتُطرح عليه نمارق وفرش في لون البساط ، ويُصَفَّ له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمرٌ عظيم . وتكون قِيَمَةُ جواريه قد هيأت له مائةَ جاريةٍ صانعةٍ ، فيصعدن إليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعداتٌ إليه ، وحين يستوين على الدكان يندفعن في غناءٍ لحنٍ من اللحن بصوتٍ واحد ، ثم ينزلن ويتقدم عشرٌ غيرهن ، وهكذا دواليك في جورٍ فائنٍ ساحرٍ بما يتمايل فيه من القدود الملية وما يتجاوب به من اللحن الفصيحة .

وكان يُجزل العطاء لأساطين الغناء في عهده أمثال إسحق الموصلى ومخارق وعلوية وغيرهم ، حتى ليرَوَى أنه استقدم إبراهيم بن المهدي عمه فأنحدر في زورق إلى قصره ، وغنَّاه صوتاً طرب له الأمينُ فأمر أن يُوقروا له زورقه ذهباً . كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يُديرها بنفسه في أمهات القصر الملكي ، فإذا الصحن مملوء شمعاً من الشمع السكبار وكان الصحن من ذلك في نهار ، وإذا الدار مملوءةً غلماناً ووصائف مجلَّل الوشَّى والجوهر ، وإذا الجوارى والخنثون يزمرون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول والسرنايات ، والجميع في شىء واحدٍ ، ومحمد في وسطهم يرتكض رقصاً في الكرج . ولقد شهد مخارق وإبراهيم بن المهدي إحدى هذه الحفلات ،

وكان الخليفة وجهه من جاء بهما ركضاً . وقد جاء في وصفهما لما مرَّ بهما في تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءها رسول الخليفة فقال : « قوما في هذا الباب مما يلي الصحن ، فارفعاً أصواتكما مع السرناى أين بلغ ، وإيّاكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه » . فأصغيا للغناء المردّد :

هذى « دنانير » تنسانى وأذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها
والله ، والله ، لو كانت - إذا برزت - نفس المقيم في كفيه ألقاها
فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقان حلقهما مع السرناى ، ويتبعانه جذراً
من أن يخرجوا عن طبقته أو يقصرا عنه . والخليفة الأمين يجول في الكرج
ما يسأله ، يدنو إليهما مرة في جولانه ، ويتباعد مرة ، ويجول الجوارى بينهما
وبينه ، حتى الغداة .

وكان محمد الأمين شديد المحبة للشراب قوى الاحتمال له ، يجدّ بندمائه
في الشرب ويستقيم معظم الليل وعلى الزيق . وكان إذا انتشى صاح في ندمائه
« من منكم يكون حمارى » فكل واحد يقول « أنا » لأنه كان يركب
الواحد منهم عبثاً ثم يصله . ولم يكن لأحد غلبة عليه في الشرب غير
أبى نواس .

ولقد أنشد أبو نواس الخليفة بوصفه شاعر البلاط قصائد عدة في مدحه .
ولكن القارئ لها لا يلمس فيها من صدق الإعجاب بالممدوح ما يلمسه في
هذه القصيدة التى قالها للأمين كما يقول النديم للنديم :

وَنَدَّمانَ يَرَى غَبْنًا عَلَيْهِ بَأْنَ يُمَسَّى وَلَيْسَ لَهُ انْتِشاءُ
إِذَا نَادَيْتَهُ مِنْ نَوْمٍ سَكْرٍ كَفَاهُ مَرَّةً مِنْكَ النَّداءُ
فَلَيْسَ بِقَائِلٍ لَكَ « اِيه ، دَعْنِي » وَلَا مُسْتَجِبٌ لَكَ « مَا تَشَاءُ ؟ »
وَلَكِنْ « يَا اسْتَفْنِي » وَيَقُولُ أَيْضًا « عَلَيْكَ الصَّرْفَ إِنْ أَعْيَاكَ مَاءُ »
وَذَاكَ مُحَمَّدٌ تَفْدِيهِ نَفْسِي وَحَقٌّ لَهُ وَقَلٌّ لَهُ الْفِدَاءُ
وَلَقَدْ أَجَاظَهُ الْأَمِينُ عَلَيْهَا بِكُلِّ بَيْتِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

وكان أبو نواس في بعض الأحيان لا يتورع حتى في مدائحه الرسمية
للخليفة الشاب أن يشير إلى منادمته له وشربه معه . من ذلك قصيدته الأولى
في مديحه وهي المطولة المشهورة التي مطلعها :

يَا دَارُ ، مَا فَعَلْتُ بِكَ الْأَيَّامُ ضَامَتِكَ ، وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ
وهو مطلع في وصف الرسوم والديار ، تجيء هذه أبيات في طي الفياق
وتجشّم الأسفار من أجل للمدوح جرياً على المذهب التقليدي . ولكن الشاعر
القديم لا يلبث أن تغلب عليه نزعة فيجرى على طبعه ويخلص إلى طريقتة :
مَلِكٌ أَغْرُ إِذَا شَرَبْتَ بَوَجهه لَمْ يَعْدُكَ التَّجْبِيلُ وَالْإِعْظَامُ
فَالْبَهْوُ مُشْتَمَلٌ بِيَدِ خَلِيقَةٍ لَيْسَ الشَّبَابُ بِنُورِهِ الْإِسْلَامُ
إِنْ الَّذِي يَرْضَى الْإِلَهَ بِهَدْيِهِ مَلِكٌ تَرَدَّى الْمَلِكُ وَهُوَ غَلَامُ
وليس أكثر مما يروونه من استغراق الخليفة محمد الأمين في اللهو
والشرب ، وإظهاره الإهمال لشؤون الملك ، حتى كانت تمر السنة لا يفرغ

فيها ساعةً للنظر في أخصّ الأمور، كأعمال الخراج والضيايع ومتصرفات الحكام.
دخل عليه يوماً إسماعيل بن صبيح كاتبه ، فإذا هو عازمٌ على الاصطباح ،
وقد أحضر الندماء والمغنين وضّعت الموائد ، وأقبل الخليفة على مائدته وابتدأ .
فقال إسماعيل بن صبيح : « يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني
فيه أن تنظر في أعمال الخراج والضيايع وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على
أعمال منذ سنةٍ لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا دخولٌ خلل
في الأعمال » . فقال له محمد : « إن اصطباحي لا يحول بيني وبين النظر ،
وفي مجلسي من لا أقبض عنه ، من عمي وبنى وعمي وإخوتي ، وهم أهل هذه
النعمة التي تجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه ، فأعرضه على وأنا
أكل ، لأتقدم إليك فيه بما تحتاج إليه ، إلى أن يُرفع الطعام ثم أتم النظر
فيما يبقى ، ولا أسمع سماعاً أو أبرم الباقي وأفرغ منه . فحضر كتاب الدواوين
بأكثر ما في دواوينهم ، وأقبل إسماعيل بن صبيح يقرأ عليهم ومحمد يأمر
وينهى بأحسن أمرٍ ونهيٍ وأشدّه ، وربما شاور من حوله في الشيء بعد الشيء ،
وكما وقع في شيءٍ وُضع بالقرب من إسماعيل بن صبيح . ورفعت الموائد ،
ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب في القدح أقلّ من رطل واحدٍ في تميم العمل ،
ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشيءٍ أسره إليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض
واستنهض سليم بن علي وإبراهيم بن المهدي ، فامشوا عشر أذرعٍ ، حتى
أقبل جماعة من النّقاطين ، فضربوا تلك الكتب والأعمال بالنار ، وكان

الفضل بن الربيع حاضراً . فالحق محمداً وقد شق ثوبه وهو يقول : « الله الله - أعدل من أن يرَضَى ذلك » ومحمدٌ يضحك .

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، إن وافى الأمينُ أجله وولّى الخلافة المأمونُ أن يجزيهُ شراً بفعلته . فجعل يُزَيِّنُ للأمين حَرْفَ ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وهو يومئذ طفلٌ صغيرٌ لا يعرف حسناً ولا يعقل قبيحاً ، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه في ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقعوده وقيامه . ومن ثمة وقع الخلف بين الأمين والمأمون ومكر كل واحدٍ منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين الأخوين . فقطعت الدروب من بغداد إلى خراسان وقُشت الكتب وصعب الأمر . وفي شهر ربيع الأول عام ١٩٤ عقد الخليفةُ لابنه « موسى » على جميع ما استخلف عليه وأسقط اسمَ المأمون من الخطبة في بغداد وقبض على وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان . ونما الشرُّ بينهما . وبقدر ما كان عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفول . وسارت الركبان بغد محمد الأمين بأخيه وقبح سيرته ، مع حُسن سيرة المأمون وما كان يُظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الأمين وانحرفوا عنه . وفي سنة ١٩٥ جهز الخليفةُ على بن عيسى بن ماهان ومعه عسكرٌ كثيفٌ وسلاحٌ كثيرٌ وأموال وافرة . وخرج معه الخليفة مشيعاً مودعاً . ثم تشاغل بعدها بلهوه وبطالته وتخلي عن كل تدبير للقائد والوزير . وشخص على بن عيسى إلى حرب المأمون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهر

مدينة الري، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل علي بن عيسى .
 وكان ذلك جميعه ، والأمين في غفلة سادر في لذته ، منهمك في لعبه .
 متفرغ لصيده وزهته . حتى ليرى أنه حين ورد نعي علي قائده ، كان في
 وقته ذلك على شطّ دجلة يصيد السمك . فقال للذي أخبره « ويلك ! دعني ،
 فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد » . على أن الأمين لم
 يلبث أن أفاق للخطر ، لما شاع الخبر بأن المأمون أعلن خلعه بعد أن أتاها
 كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه في جميع كور خراسان
 وما يليها ، فجعل الأمين يتابع إرسال الجيوش والقواد واصطنع في أموره
 شيئاً من الجد .

وجعل الأمين يحمل على نفسه فيخرج لقواده وجنده وعامة رعيته بين
 الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنونهم وكبر عندهم ما يرونه من احتجاجه عنهم .
 فكان يجلس لهم بعض الأحيان ساعة من نهار ، وبين يديه الفضل بن
 الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكيناً
 لهم ومراجعةً لآمالهم . وكان إذا جلس في مجلسه هذا أذن للناس عامة ،
 فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأشدوا . بيد
 أنه لم يكن أحد منهم يتعدى إلى الاطناب والتطويل إلا أمر بالسكوت
 ومنع من القول . وفي هذه المناسبات أشد أبو نواس مدائح القصار في
 الخليفة الأمين ، نذكر منها قوله :

ألا يا خير مَنْ رَأَتْ العيونُ نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ

وفضلك لا يحدُّ ولا يُجَارَى ولا تحوى حيازته الظنونُ
فأنت نسيجٌ وحدك لا شبيهة نحاشيه عليك ولا خدين
خلقت بلا مشاكلة لشيء فأنت الفوقُ ، والثقلان دون
كان الملك لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالملك الأمين
وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقته « الأسد »
و « الفيل » و « العقاب » و « الحية » و « الفرس » ، وأنفق في عملها مالا
عظيماً ، وقد اتخذها للنزهة . وكان إذا خرج لركوبها اصطفت له الخيلُ وعليها
الرجال على شاطئ دجلة ، وحملت معه المطايخ والخزائن . وفي مرةٍ من هذه
المرات كان ركوبه إلى الشماسية في الحراقة التي على مثال الأسد . فما رأى
الناس منظراً ولا مسيراً كان أبهى وأحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب
أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه فقال :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب الحراب
فإذا ما ركابه سرن بجرأ سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانیه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركب
عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناح ين تشق العباب بعد العياب
تسبق الطير في السماء إذا ما استعجلوها بحيئة وذهاب

بارك الله للأمين وأبقا هـ وأبقى له رؤاء الشباب
ملكٌ تقصّر المدائحُ عنه هاشميٌّ موفقٌ للصواب
ولأبي نواس غير هذه قصيدة أخرى في حرّاقة على مثال الدلفين، مطلعها :
قد ركب الدلفين بدرُ الدجى مقتحمًا في الماء قد لججا
ولما كان أبو نواس في مجاهرته بالمعاصي وتهتكه في السكر قد شاعت له
سمعةٌ قبيحةٌ ، واشتهر بشهرةٍ فاضحةٍ ، فقد وجد دعاةُ المأمون في منادمته
للأمين واختصاصه به وجهًا من أوجه الخيلة للزراية على خليفة بغداد والعيب
عليه باحتماله إياه . فكان وزيرُ المأمون الفضلُ بن سهل ذو الرياستين يخطب
عساويءَ الأمين ويحرّض الناس على قتاله ، وقد أعدَّ رجالًا يحفظ شعرَ أبي
نواس فيقول : « ومن جلساء محمد الأمين رجلٌ ماجنٌ كافرٌ مستهزئٌ يقول
كذا وكذا » وينشد قوله :

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
وينشد قوله :

يا أحمدُ المرتجى في كل نائبةٍ « قُم - سيدي - نَعصِ جبارَ السمواتِ
وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل
فسق وفجور ، وخمر وما خور » . فيبلغهم من يحضر المجلس من أهل خراسان .
فكتب بذلك إلى محمد الأمين عيونه ، فجزع لذلك وأراد التنصل من التبعة
وإسقاط الحجة ، بأن يظهر غضبه على الشاعر ويُنزل به نقمته . وكان قد
اتصل به عنه أبياتٌ أحفظته عليه ، منها قوله وهو سكران :

إسـقـنـيـها يا ذفـافـه مُـرَّة الطـعـم سُـبـلـافـه
ذَلَّ غـنـدى من جـفـافـها لـرـجـاء وـخـافـه
مـثـل ما ذَلَّتْ وضاـعَتْ - بـعـد هـارون - الخـلافـه

ومنها قوله مفاخرأ وهو بحال من العسر والحاجة :

وقـد زادنـي تـيهاً عـلى النـاس أنـى أرانى أغـنـاهـم وإـن كـنتُ ذا عـُسـرٍ
ولـم أنـل فـضلاً ، لـكانـت صـيـاتـى قـمـى عـن جـمـيـع النـاس حـسـبـى مـن الفـخـر
ولـا يـطـمـعنُ فـى ذاك مـنـى طـامـعٌ ولـا صـاحـبُ التـاج الحـجـبُ فـى القـصـر
فـبـعث الأـمـين بإحـضـاره ، وعـنـده أـعدى أـعدائـه سـليمان بن جـعـفر بن أبـى
جـعـفر . فلـما أحـضـر الشـاعـر ومـثـل بـين يـدئـى الخـليفـة بادره : « يا بن الـاخـنـاء
العـاهـرة » وشـتمـه أـفـبـح الشـتم . وقـال : « أنـت تـسـكـب بشـعـرك أوسـاخَ أيـدى
جـمـيـع النـاس ، ثم تـقـول (ولـا صـاحـبُ التـاج الحـجـبُ فـى القـصـر) . أما واللـه لـانـلتُ
مـنـى شـيئاً أبـداً » . فقـال سـليمان : « وهـو واللـه يا أـمـير المـؤمـنـين مـن كـبار الثـنـويـة »
فقـال الخـليفـة : « أيشـهد عـلـيـه بـهـذا أحـد ؟ » فاستـشـهد سـليمان جـمـاعـة شـهـدوا عـلـيـه
بالـشـرب والفـسـق . فوجـه به الخـليفـة إـلى الفـضـل بن الرـبـيع وأمره بـمـجـسـه مـع
قـوم كانوا يـتـهـمون بالزـنـدقة .

وطال حـبـسُ أبـى نـواس فـى المـطـبـق ، حـتى يئـس مـن عـفو الأـمـين ، ولم تـبق
لـه بـارـقـة أـملٍ فـى الاخـلاص إلا بـدخـول المـأمـون . وذـلك فـى قـولـه :

ياربِّ إن القـوم قـد ظـلـمـونى وبـلا اقـتـرافٍ مـعـطِّل حـبـسـونى
والـى الجـحـود بما عـلـيـه طـويـتى بالزور والبهتان قـد نـسـبـونى

ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي ، والمجانة ديني
 لا العذر يُقبل لي ، ويُفَرَّقُ شاهدي منهم ، ولا يرضون خلف يميني
 أما الأمين فلست أرجو دفعه عني ، فمن لي اليوم بالمأمون !
 وكان للفضل بن الربيع خالٌ يعرض أهل السجون ويتفقدهم
 ويتعهدهم ، فدخل إلى حبس الزنادقة الذي فيه أبو نواس ، ولم يكن يعرفه ،
 فقال له : « يا هذا أنت مع الزنادقة ؟ » . فقال له أبو نواس : « معاذ الله » .
 فقال له : « فلعلك ممن يعبد الكباش ؟ » . فقال له : « أنا آكل الكباش
 يصوفه » . فقال له : « فلعلك تعبد الشمس ؟ » . فقال له : « إني لأتجنب القعود
 فيها بغضاً لها » . فجاء إلى الفضل فقال له : « يا هذا ! لا تحسنون جوار نعم الله
 بحبس الناس بغير جرم » . فقال الفضل : « وما ذاك ؟ » فخبّره الخبر .
 فضحك منه ، ودخل على الخليفة فأخبره وشفع إليه فيه . فدعاه ، وأمر
 باستحلافه وأخذ العهد عليه أن يحتنب الخمر والسكر .

ولزم أبو نواس بيته من خوف المطبق ، وظلّ على ذلك أياماً يظهر التوبة
 ويتذرع بالنسك والتقوى . وإلى القارئ الصورة التي يُمثلها لنفسه كما يريده
 الخليفة ووزيره على أن يكون ، وهي - وان تكن صورة ناسكٍ متبتلٍ -
 لا تكاد تخفى ما وراءها من التهم على النسك والسخر بالناسكين :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني الذ
 سلك وعودتني ، والخير عاده
 فارعوى باطلاً ، وأقصر حبلي وتبدلت عفة وزهاده
 لو تراني ، ذكرت لأحسن البه
 رى في حسن سَمْتِهِ ، وقتاده

المساييحُ في ذراعَيَّ ، والمص
 وإذا شئت أن ترى طرفهَ تع
 فادعُني - لا عدمتَ تقويمَ مثلي -
 ترَ أثرًا من الصلاة بوجهي
 لو رآها بعضُ المرائين يومًا
 ولقد طال ما شقيتُ ولكن
 وكان الفتيان يتعرضون لأبي نواس للشرب معه ، وهو يستغفيمهم ويعتذر
 إليهم . فقال بعضهم : « وإن لم تشرب فأنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر
 مجلسَ شرايهم . فلما دارت الكأس بينهم عادوا يعزمون عليه ويستهوونه :
 « ألم ترَ نتجَ لها ؟ » . قال : « نعم والله ! ولا سبيل إلى شربها » وأنشأ يقول :
 أيها الرأحان باللوم ، لوما لا أذوق المدامَ الا شميا
 نالني بالملام فيها إمامٌ لا أرى في خلافه مستقيا
 فاصرفاها إلى سواي ، فاني لستُ إلا على الحديث نديما
 إن حظي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشمَ النسيما
 فكأنني وما أحسنُ منها - فعدَيَّ يزيِّن التحكيما
 كلَّ عن حملهِ السلاح إلى الحرب فأوصي المطيع ألا يقيما
 على أن النواصي لم يلبث أن غلب عليه طبعه ونازعته إلى الخمر نفسه .
 وكيف يتنكر لها أو يساو عنها وإنه ليحسنُ بينه وبينها نسبًا شابكًا ورحمًا
 ماسَّة ، فهو تارةً ابنُها ، وهي تارةً شقيقةُ روحه :

أنا ابن الحجر ، مالى عن غذاها — إلى وقت المنية — من فطام

لأمنى فى المدام — غير نصوح — لا تلغى على شقيقة روى

فعاد التائب السكير لسيرته الأولى فى المواخر ، عاكفاً على بنت الدنان
من جديد عكوفاً ما عليه من مزيد ، ووقف عليها أوقاته يعوض منها ما فاتته .
ورفع ذلك إلى الخليفة فأمر به فحبس ثلاثة أشهر . وقد حكى صاحبُ
الشرطة أنه لما حبس أبو نواس ، كان أكثر من يزوره فى حبسه المرد
والشبان ، والحجارين ، وأصحاب الريسة . ويقول صاحب الشرطة إنه عرف
منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك ، فجعل عليهم الضرائب ، ثم فقد
ذلك لما أطلق الشاعر لتفرقهم . وأخيراً دعا الخليفة به وحوله بنو هاشم
وغيرهم ، وكان قد دعا بالنطع والسيف يهدده بالقتل . فأنشد أبو نواس هذه
الآيات مستعظفاً :

تذكرُ أمينَ الله — والعهدُ يذكرُ	مقامى وإنشاديك والناسُ حُضرُ
ونثرى عليكَ الدرَّ ، يادرَّ هاشم !	فيا مَنْ رأى درّاً على الدرِّ ينثر !
أبوك الذى لم يملك الأرض مثله	وعثك موسى الصفة المتخير
وجدك مهديُّ الهدى ، وشقيقه	أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر
ومن مثل منصوريك : منصور هاشم	ومنصور قحطان إذا عدَّ مفخرُ
فمن ذا الذى يرمى بسهميك فى العلا	وعبدُ منافٍ والداك وحير
تحسنت الدنيا بوجه خليفه	هو البدرُ إلا أنه الدهرُ مقمر

أيا خير مأمولٍ يُرَجَى : أنا امرؤ أسيرٌ رهينٌ في سجونك مُقْبِرٌ
مضت لي شهورٌ - مذحُبتُ - ثلاثةُ كَأَنِّي قد أذْنبتُ ما ليس يُغْفَرُ
فإن كنتُ لم أذنب ، فقيمَ حبستني وإن كنتُ ذا ذنبٍ فعفوك أكبرُ
فقال له الخليفةُ : « فإن شرتَ بها؟ » قال : « دمي لك يا أمير المؤمنين »
نفلي سبيله .

والظاهر أن تهديد الخليفة في هذه المرة قد أفرعه وروّعه . فقد ظل زمناً
يرفض الحُرَّ ، وكلامهم بالخالفة ذكر موقفه بين النطع والسيف ، فقال يخاطب نفسه :
أطِيعِ الخليفةَ واعصِ ذا عَزَفٍ وتنحَّ عن طَرَبٍ وعن قَصَفٍ
عينُ الخليفةِ بي موكَّلةٌ عَقَدَ الحِذارُ بطرفه طرفي
صحتَ علانيتي له ، وأرى دينَ الضميرِ له على حَرَفٍ
فلئن وعدتُك تركَها عِدَّةً إني عليك لخائفٌ خُلْفِي
وهو يذكرك في أسفٍ لا يخفى كيف كان يغدو إلى حوانيت الخمر فيملاً
زَقَّةً من صفوها قبل الزقاق ، ويجوز قبلها قَصَبَ السباق . ولكن ما الحيلة
وهذا أمر ملك العراق ، قد جعل هلاكه في كفِّ ساقٍ :

أعاذلُ ، لا أموت بكفِّ ساقٍ ولا آبي على ملك العراق
هجوتُ له التي عنها نهاني وكانت لي كمسكة الرِّماق
وقد يغدو إلى الخانوت زِقِّي فيأخذ عَفْوَهُ قبل الزقاق
وكنَّ إذا نزعن إلى مداه حوى - قدَّماها - قَصَبَ السباق

على أن الشاعر وإن يكن قد أقلع عن الخمر لم يكف عن ذكرها والهج
بأوصافها :

لولا الأمير ، وأن العذر منقصةً والعار بالعار عندى أقبح العار
جاءت بخاتمها من بيت خمار رُوح من السكر في جسم من القار
فالريح ريحٌ ذكيٌّ الأذفر الداري والبردُ بردٌ الندى ، واللون للنار
ولكن هذا لم يرضِ أولى الأمر ، فشددوا عليه في ترك التعنى بالخمر .
فكأنما قُضى على هذا التأثير على مذهب العرب في الشعر، الساخر من أوصافهم
للطول والقفر ، أن ينعتهوا وإن يكن كارهاً لها :

أعز شعرك الأطلال والدن القفراً فقد طال ما أزرى به نعمتك الخمر
دعاني إلى وصف الطول مسلطاً تضيق ذراعي أن أجوزله أمراً
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً وإن كنت قد جشمتني مركباً وعراً
ومع هذا فقد كان الشاعر يحتال لنعته ، ثم كان لا يعدم في مجلس
الشراب بعض التعزية عنها ، فثمة - على الأقل - الساق المليح الغرير ، إذا هو
طاف بالخمر فلم يشربها من يديه ، شربها لذيدة مسكرة من سحر عينيه :

أعاذل ، أعتبت الإمام وأعتبا وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقينا «أجزها» فلم يكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عني سلافاً ترى لها إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطمئناً
إذا عب فيها شارب القوم خلته يُقبل في داج من الليل كوكباً

يدور بها ساق أغن ترعى له على مستدار الأذن صدغاً مقرباً
سقامهم ومَنَانِي بَعِينِهِ مُنِيَّةً فَكَانَتْ عَلَى قَلْبِي أَلَذَّ وَأَطْيَبَا
وكان شاعرنا مِسْرَافاً مِضْيَاعاً لَا تَحْتَوِي يَدُهُ عَلَى عِطَاءِ مَهْمَا جَلَّ حَقُّهُ
يَتَلَفَهُ عَلَى الْخَمْرِ وَالنَّدَمَانِ . وَلَقَدْ حُمِلَ مَا حُمِلَ إِلَيْهِ أَوَّلًا وَآخِرًا مِنْ جَوَائِزٍ مَمْدُوحِيهِ
مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَأَرَبَابِ الدَّوْلَةِ ، وَتَرَادَفَ مَا تَرَادَفَ عَلَيْهِ مِنْ
صِلَاتٍ حُبِّيٍّ مَنَادِمَتِهِ مِنَ السَّرَاةِ وَأَهْلِ النِّعْمَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدَّخِرْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ
شَيْئًا . وَيَالَيْتَهُ وَقَفَ فِي غَرَامِهِ بِالْخَمْرِ وَاسْتَهْتَارَهُ بِهَا عِنْدَ إِتْلَافِ مَا لَدَيْهِ فِيهَا ،
بَلْ صَارَ يَزُرِي عَلَى مَنْ لَا يَفْعَلُ فِعْلَهُ مِنْ عَشَّاقِهَا وَخَاطِبِيهَا :

يَا قَهْوَةً حُرِّمْتَ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ أَثَرِيٍّ فَاتْلَفَ فِيهَا الْمَالَ وَالنِّشْبَا
فَلَا غُرُو ، وَقَدْ نَزَفَ الْخَمْرُ مَا عِنْدَهُ مِنْ مَالٍ ، أَنْ تَشْتَدَّ بِهِ الْحَاجَةُ وَيَعَانِي
جَهْدَ الْحَالِ ، لَا سِيَّامَا وَالْخَلِيفَةُ غَيْرُ مُقْبِلٍ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ . فَهُوَ يَتَوَجَّهُ إِلَى آلِ
الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالسُّؤَالِ بَعْدَ السُّؤَالِ يَسْتَمْنَحُهُمْ وَيَسْتَدِرُّ عِطَاءَهُمْ فَيَبْطِئُونَ
عِنْدَهُ . وَيَشْكُو الشَّاعِرُ مِنْ خُلْفِ الْوَعْدِ وَكَثْرَةِ الْمَطْلِ ، فَيَتَقَلَّ عِتَابُهُ عَلَى نَفْسِهِمْ
وَيُلْقَى فِي الْحَبْسِ . فَيَكْتُبُ الشَّاعِرُ إِلَى الْفَضْلِ فِي حَبْسِهِ مُعْتَذِرًا إِلَيْهِ ذَا كَرًّا
بِرَّهِ طَالِبًا عَفْوَهُ :

أَبَا الْعَبَّاسَ ، مَا ظَنِي بِشَكْرِي - إِذَا مَا كُنْتَ تَعْفُو - بِالذِّمِّ
وَكُنْتَ أَبَا سَوَى أَنْ لَمْ تَلِدْنِي - رَحِيمًا أَوْ أَبَرَّ مِنَ الرَّحِيمِ
لَنْ أَصْبَحْتُ ذَا جُرْمٍ عَظِيمٍ - لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عَفْوٍ كَرِيمٍ
وَيَتَشَقَّقُ بِجَعْفَرِ أَخِي الْفَضْلِ قَائِلًا :

فلا تجحدوا بي ودَّ عشرين حِجَّةً ولا تُفسدوا ما كان منكم من الفضل
وفيا يرويه الرواة من هذه الأخبار أن أبا نواس صار إلى العباس بن
الربيع في حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

أَعْمَرُكُ مَا (العبَّاس) من ولد (الفضل) فَيُرْجَى لَعْرَفٍ أَوْ يَغَارُ عَلَى بَذْلِ
فَتَى كُلِّ نَادِيَتِهِ لَمَلَّةٍ دَعَوْتَ مَثَالاً لَا يُمِرُّ وَلَا يُحْلِي
فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فأمر بكر بن المعتمر ، فأخذه وضربه وجلسه
وقيده وأسلمه إلى سجانٍ فظٍّ غليظٍ كان على المطبق اسمه « سعيد » فضيق
عليه وآذاه . فكتب الشاعر السجين رقعة وأنفذها إلى بكر فيها :

وُقِيتَ بِي الردى ! زِدْنِي قُيُودًا وَثَنٌ عَلَى سَوْطًا أَوْ عَمُودًا
وَوَكَّلَ بِي وَبِالْأَبْوَابِ دُونِي مِنَ الرقباءِ شَيْطَانًا مَرِيدًا
وَأَعْفِ مَسَامِعِي مِنْ صَوْتِ رَجَسٍ ثَقِيلٍ شَخْصُهُ يَدْعَى « سَعِيدًا »
فَقَدْ تَرَكْتُ الْحَدِيدَ عَلَى رِيشًا وَأَوْقَرْتُ بَغْضَهُ قَلْبِي حَدِيدًا
فضحك بكرٌ من الأبيات ، ووقف الفضل عليها ، فأمر بإطلاقه فخرج
وهو يقول :

يَافُضِّلُ قَدْ أَوْسَعْتَنِي عِظَةً مَا بَعْدَهَا غَلَطٌ وَلَا سَهْوٌ
وَلَمَّا كَانَتِ الْفُرْصَةُ مَوَاتِيَةً لِكُلِّ مُضْطَظَّنٍ عَلَى أَبِي نَوَاسٍ ، مَوْتُورٍ
بِهَجَاتِهِ لَهُ ، أَنْ يَسْعَى بِهِ لَدَى السُّلْطَانِ وَيَرْمِيهِ بِالْحَقِّ أَوْ بِالْبَاطِلِ بِأَحَدِي
مَوْجِبَاتِ الْحُدُودِ ، فَقَدْ كَثُرَ مَا كَانَ يُرْفَعُ إِلَى الْأَمِينِ مِنَ الْإِتِهَامَاتِ ، يَنْسَبُونَ
فِيهَا الزُّنْدَقَ وَالْكَفَرَ إِلَى الشَّاعِرِ ، حَتَّى صَحَّ عَزْمُهُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَجَعَلَ أَمْرَ ذَلِكَ

الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واحداً عليه . فأتى بالشاعر وقال له : « رُفِعَ
إلى أمير المؤمنين أنك زنديق » . فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضل
يكرّر عليه ، ثم أعاده الى الحبس . وبقى أبو نواس في المطبق دهرًا وهو
يتربّب الموت بين لحظة وأخرى ، وقد تخلى عنه أصدقاؤه وثقاته ، وذلك حيث
يقول :

أَخْلَافِي أَذَمُّكُمْ إِلَيْكُمْ وَكُنْتُ بِمَدْحِكُمْ قِمِينًا خَلِيقًا
إِذَا اسْتَبْطَأْتُكُمْ عَنَّفْتُمُونِي وَقَلْتُمْ إِنَّ فِيهِ لَذَاكْ ضَيْقًا
فَأَقْسَمُ لَوْ تَكُونُونَ الْأَسَارَى وَكُنْتُ أَنَا الْخَلَى وَالطَّلِيقَا
إِذَا لَجِهْتُ فَوْقَ الْجَهْدِ حَتَّى أَطِيقَ خِلَاصَكُمْ أَوْ لَا أَطِيقَا
فَلَا - وَاللَّهِ - أَذْخَرَكُمْ هَجَاءً وَشَتْمًا مَا بَقِيتُ - وَلَا عَقُوقَا

وأخيراً كلم الفضل الخليفة فيه ، فأطلق سبيله . فخرج وهو لا يصدق
أنه قد أطلق ، ومضى الى أهله يقول :

أَهْلِي ، أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْقَبْرِ وَالنَّاسُ مُحْتَبَسُونَ لِلْحَشْرِ
لَوْلَا أَبُو الْعَبَّاسِ مَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَى وَلَدٍ وَلَا وَفْرِ
وكتب الى الفضل :

مَا مِنْ يَدٍ فِي النَّاسِ وَاحِدَةٍ كَيْدِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَوْلَاهَا
نَامَ الثَّقَاتُ عَلَى مُضَاجِعِهِمْ ، وَسَرَى إِلَى نَفْسِي فَأَحْيَاهَا
قَدْ كُنْتُ خِفْتُكَ ، ثُمَّ أَمْنِي - مَنْ أَنْ أَخَافُكَ - خَوْفَكَ اللَّهُ
عَفَوْتَ عَنِّي عَفْوً مُقْتَدِرٍ وَجَبْتَ لَهُ نِقْمٌ فَأَلْغَاهَا

وكانت جيوش طاهر المأمونية قد تقدمت ونزلت حلوان ، وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأئمين وهزيمتهم في كل حال . وأيقنت القلوب بغلبة المأمون ، فسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفة إلى قواده وبطانته يجمعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أحضروني غنائكم كما أحضرت خراسان عبد الله غنائها » ، ويستحث فيهم قيام رجل مثل طاهر قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله ، لقد حدثت بأحاديث الأمم السالفة وقرأت كتب حروبها وقصص من أقام دولها ، فما رأيت في ذلك كله حديثاً لرجل منهم كهذا الرجل في إقدامه وسياسته . وقد قصد إلى واجترأ على » ، فهاتوا اليوم ما عندكم .

ولكن جيوش محمد ما برحت تهزم بين يدي طاهر ولم تقم لها قائمة . وأراد بعض الأمراء أن يستجيش للأئمين جنوداً من الشام والجزيرة ممن أدبتهم الشدائد وضرستهم الحروب . فأبى سوء حظ الأئمين إلا أن تقوم فتنة فيهم بين الأبناء الجزريين وأهل الشام الزواويل . فانفض أهل الشام إلى بلادهم . ونادى قائد الأبناء الحسين بن علي بن ماهان في عسكره بالرحيل قاصداً بغداد ، فلما وصلها خلع الأئمين في ١١ رجب سنة ١٩٦ وجبسه وأعلن البيعة للمأمون . ولكن كبار الأبناء ثاروا على قائدهم وأسروه ، وأطلقوا الأئمين ، وأعدوه في مجلس الخلافة .

وبينا كانت الأمور في بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمر المأمون على غاية ما يكون من النظام وإحكام التدبير . وقد أرسل

من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من طاهر بن الحسين ما غلب عليه من السكور
والمدن بشرق بغداد ، وتحول طاهر إلى الأهواز والبصرة في غربتها ، ليكون
الهجوم على بغداد من جهتين .

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد ، فحوصرت من عدة
جهات ، وقطعت عنها الأزواد والتجارة ، ونُصبت عليها المنجنيقات والعرادات
وصارت المدينة ترمى في كل وقت بالحجارة . فكثرت الهدم والتحريق ، وخربت
الديار ، وعفت الآثار ، وانهت الأموال وغلت الأسعار . وبلغت الشدة
بالناس كل مبلغ . وانفضَّ عن الخليفة المنكود الحظ طلاب الجاه وأرباب
المراتب من خاصته ، والتجار ، وأصحاب الأموال والودائع والذخائر . والعجيب
أن الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خلق من السوقة والعيارين وأهل
السجون . وكانوا على مداخل المدينة يقاتلون نصف عراة ، في أوساطهم
التباين والمآزر ، وقد اتخذوا لرؤسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ،
ودرقاً من الخوص والبوارى قد قُيرت وحُشيت بالخصى والرمل . وكان على
كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء تقيب ، وعلى كل عشرة
تقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولقد ارتضى بعضهم أن يكون
مركباً للرؤساء يركبونهم بالمقاود واللجم والمذاب . وعلى هذه الحال كان يتقدم
الرؤساء منهم والمقاتلة إلى الحرب مع أصحاب الخيول الفره والجواشن والدروع

والتجافيف والسواعد والدرق التَّبَيَّة ، فهؤلاء عراة وهؤلاء بكامل العدة ، فكان يُقتل منهم الخلقُ الكثير .

ولقد سجَّل هذه الأحداث وقعةً وقعةً في قصائد عدة ، زميلُ أبي نواس ومواطنه البصريُّ ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزي الورَّاق ، وهو على مجونه قد اشتغل بهذه الخطوب واهتمَّ لها .

وأما أبو نواس فإنه في وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له همٌّ ، وقد شُغِل عنه أولو الأمر ، إلا أن يستأنف حياةَ الفجوز والسكر . وإذا كان لم يفكر في خيانة الأمين والانحياز إلى خصمه ، فإنه كذلك لم يخطر له أن يحمل سيفاً أو يعتقل رجلاً في القتال عنه . وإنما كان ميدانه مجلسُ اللهو ، وآلاتُ حربِه مقارعةَ الأقذاح والتراخي بالزهر ، وقد استبدل بهيعةَ الوغى وسفكِ الدماء صوتَ المعازف وحمرةَ الخمر :

إذا عبَّ أبو الهيجا للهيجا فرسانا

وسارت رايةُ الموت أمام الشيخ إعلانا

وشبَّت حربُها واشتعلت نلَّه نيرانا

جعلنا القوسَ أيدينا وتبَّل القوس سوسانا

وقدَّمنا مكانَ الرمح والمطرِد رِيحانا

فغادت حرُّبنا سِلماً وعُدنا نحن خُلاناً

بفتيانٍ يروْنَ القِتَّة لَ في اللذة قُرَبانا

إذا ما ضربوا الطبلَ ضربنا نحن عيدانا

وَأَشَانَا كَرَادِيْسًا مِنْ الْخَيْرِ أُولَانَا
وَأَحْجَارُ الْجَانِيْقِ لَنَا تَفَاحُ لُبْنَانَا
وَمَنْشَا حَرِّ بِنَاسِقِ سَبَا خَمْرًا فَسْقَانَا
يَحْتَ الْكَاسِ حَتَّى يَدَا حَقُّ الْآخِرِ أُولَانَا
تَرَى هَذَاكَ مَصْرُوعًا وَذَا يَنْجَرَّ شُكْرَانَا
فَهَذِي الْحَرْبُ، لِحَرْبٍ تَعْمُ النَّاسَ عِدْوَانَا
بِهَا نَقْتَلُهُمْ ، ثُمَّ بِهَا نَنْشُرُ قَتْلَانَا

وهذه مقابلة أخرى من مقابلاته بين الحربين :

أَحْسَنُ مِنْ رَمَى بَعْرَادَةٍ وَمِنْ قِدَافِ الْمُنْجَنِيْقَاتِ
مُسَامِرٌ فِي مَجْلِسِ حَاضِرٍ أَمَامَ أَعْوَادِ وَنَايَاتِ
وَقِينَةٍ تَشْدُو عَلَى صَحْبِهَا تُعْطِيكَ أَسْبَابَ اللِّذَازَاتِ
فَذَاكَ يُسَلِّي الْهَمَّ لَا مَعْرَكُ يَرْمِي بِأَحْجَارِ الْمَنِيَّاتِ

وإذا كان هذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رأيًا يرتئيه ومذهبًا في التفكير
يذهب إليه ، وإنما هو شيء في أصل تكوينه وتركيب طباعه . وإليك عذره
وهو لا شك أدري بنفسه :

يَا «بَشْرُ» مَالِي وَالسَّيْفِ وَالْحَرْبِ وَإِنَّ نَجْمِي لِلَّهِوِ وَالطَّرْبِ
فَلَا تَتَّقُ بِي فَإِنِّي رَجُلٌ أَكْعُ عِنْدَ الْإِقْدَاءِ وَالطَّلْبِ
وَإِنْ رَأَيْتُ الشُّرَاةَ قَدْ طَلَعُوا أَلْجَمْتُ مُهْرِي مِنْ جَانِبِ الذَّنْبِ

ولست أدري ما الساعدان، ولا الترس، وما بيضة من اللبب
 همي إذا ما حروبهم غلبت أي الطريقين لي إلى الهرب
 لو كان قصفٌ وشربٌ صافية وجدتني ثم فارس العرب
 وقد روى إبراهيم الطبري أنه كان في أيام الفتنة جالساً على بابهِ، إذ مرَّ به
 أبو نواس وقال: «قم حتى نأخذ من شأننا» فدخل فجعل يشربان. وأقبل
 الداخل بعد الآخر يدخل إليهما فيقول: «كان كذا وكان كذا» فأنشأ أبو نواس:

عندي للخمرة أسماء لها دواءٌ ولها داء
 يصلحها الماء إذا صفقت وربما أفسدها الماء
 وقائل كانت لهم قصة فيها أحاديثٌ وأنباء
 قلت له: «أي امرئٍ جاهل فيك عن الخيرات إبطاء
 اشرب ودعنا من أحاديثهم يصطلح الناس إذا شاءوا»

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين: المأمونية، والحمدية، أربعة عشر
 شهراً. وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله، وصبر الفريقان جميعاً. وانقطعت
 الموارد بالأمين في أرزاق الجند، ف ضرب الآنية من الذهب والفضة سرّاً وأعطى
 رجاله. ثم شغب عليه من لم يعطهم من قاداته وجنده وخذلوه، واقتصرت
 حامية الخلو على العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البواري ورماح
 القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر. وكانوا في حربهم
 كالشياطين، وقد اتخذوا تحت آباطهم الخالي فيها حجارة وقطع أجراً يتبدرون

بها الفرسان ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعمّ في أصحاب طاهر ،
والفرق والحريق في العراة أصحاب الخلوع . واشتدّ الأمر بالناس أي اشتداد
وهم تحت وابل المنجنيقات والعراة ، ينتقل أهل السكك والدروب
من موضع إلى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ، وصار أكثرهم يسخطون
على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه . وكثر القتل في الطرق
والشوارع . يُنادى هذا « يا للأمون » ، وهذا « يا للمخلوع » ، فيقتل
بعضهم بعضاً . وانتهت الدور ، وأعلنت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز
الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة ، وكبير وصغير بما
يسلم معه ، إلى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله . وشدّ طاهر النكير وضيق
الحناق . وأقبل يقطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، فينحاز إليه من يصير
في حيزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه في حربه . واشتدّ الأمر على محمد
الخلوع وجدّه به . فنصح إليه من نصح بالتسليم . وألحّ عليه الصعاليك من
أصحابه بالخروج من المدينة بالليل الى بلاد الجزيرة وديار ربيعة ، لاستنفار
الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة
حتى أساموه الى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم
حتى قتلوه .

وهنا انقلب الكثيرون من مادحي الأمين في أيام عزّه ، إلى القدح فيه
والدشنيع به وتعيدد مثالبه بعد موته ، يتقربون بذلك الى الغالب ويخطبون

ودّه . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل
كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثلاً على الوفاء ، كما يشهد كل بيت من
هذا الرثاء :

طوى الموت ما بيني وبين محمدٍ	وليس لما تطوى المنية ناشرٌ
فلا وصل ، إلا عبرة تستديمها	أحاديث نفس مالها الدهر ذإكر
لئن عمّرت دور بمن لا أودّه	لقد عمّرت ممن أحب المقابر
وكنّت عليه أحذر الموت وحده	فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

الخاتمة

عاش أبو نواس ماعاش « طالب لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه إلى إصابة اللذة والتهالك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدّم السنّ وتجاوز هذا الطور من العمر . ولكنه ظلّ على حاله من الخلعة والمجون إلى أن بلغ الحسین وإلى ما بعد الحسین . وإذا ذكرنا أنه كان ناعماً نحيل البدن تعوزه الضلعة ومثانة التركيب منذ حدثته ثم أضفنا إلى ذلك علوّ سنّه وكهولته ، لم نصدق أن استهتاره بالذات وانغماسه فيها مما يُنسب إلى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما إذا تدبّرنا ما قيل من أنه لم يكن مجدوداً من النساء . فالأمر إذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذة من ناحية مزاجه قبل كل شيء ، وأن فجوره كان فنيّاً ، أو - إذا شئنا اصطناع لغة الفلاسفة - كان فجوراً بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدقّ كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو - مهما يُقلّ عن نفسه - لم يكن أقبح أهل الأرض عملاً ، وإن يكن من أقبحهم قولاً :

عَفْ ضَمِيرِي ، هَازِلْ لَفْظِي ، وَفِي نَظَرِي عَرَامَه

ولقد كان في وسع أبي نواس أن يتستّر ويتكتم ويستعمل التقيّة والنفاق

كغيره ، ويُصيب في السرِّ والخفاء من اللهو واللوان اللذاذات ما يشاء . ومن
الحقّق الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنه كثيراً إلا في تسترهم
ومجاهرتهم ، وسرهم وعلايتهم ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيى
إلى ولده :

إنصبْ نهراً في طلاب العِلا	واصبرْ على فَقْدِ لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليلُ بدا مُقبلاً	وغاب فيه عنك وجهُ الرقيبِ
فبادر الليلَ بما تشتهي	فإنما الليلُ نهارُ الأريبِ
كم من قَتَى تحسبه ناسكاً	يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيبِ
ألقى عليه الليلُ أستارَه	فبات في هُوٍ وعيشٍ خصبِ
ولذّةِ الأحقِّ مكشوفةٌ	يسعى بها كلُّ عدوٍّ مرِيبِ

ولكن أبانواس كان لا يعرف اللذة إلا في المجاهرة بها ، وإعلام القاصي
والداني بشئها ، مع المبالغة والتهويل في أمرها ، كأنما اللذة ليست هي التي
تعنيه ، وإنما استهتاره بها هو المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير
هنا إلى أن هذه الآفة تكون أحياناً من علامات مُرْكَبِ النقص في الضعاف
القاصرين من أهل الإياحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذات منهتك السَّترِ	وأفضتُ بنات السرِّ مني إلى الجهرِ
وهان على الناسُ فيما أرومه	بما جئتُ فاستغفنتُ عن طلب العذرِ
ألا فاستقني خراً ، وقل لي هي الخمر	ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ
وَبِحْ بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى ودعني من الكُفَى	فلا خير في اللذاتِ من دونها ستر

أطيب اللذات ما كان جهاراً بافتضاح
والقارئ لجون أبي نواس ينتهى لا محالة إلى أن الشاعر يعترف على نفسه
بأنه أكثر مما يقترف، ذاهباً مع خياله المريض إلى أبعد ما تذهب إليه نزغات الشهوة،
مستغرقاً في تصور ما ليست له عليه قدرة. وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة
يتعوّض من عجزه فيما بينه وبين نفسه، ويرضى غروره بما يزعمه عند من لفّه
لفه من أبناء عصره. وأياً ما كان الحال، فقد مضى صاحبنا في غوائته،
ساذراً في جهالاته، مستكثراً من الفضائح، يضع لهوه ولذته فوق كل اعتبار،
ولا يبالي ما يجب لسنة من الوقار.

يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله غير وقار
وكان كلما أدبر شبابه وتداعى عنفوانه وتقدم به العمر، تركّزت كل
شهوته في الخمر، فاستهلك في شربها والعكوف عليها:
لم يبق لي في غيرها لذة كَرَحِيَّةٍ في الكأس كالنارِ

قالوا: «شِطَّتْ» قفّلت: «ما شطّمت يدي

عن أن تحت إلى فمي بالكأس

فالشيخ متعلق بها، مصرّاً عليها، غير آسٍ على شيء يفوته غيرها.
فهو شغلّه في الحياة وطليئته، وهي ما بعد الحياة همّة وموضع تفكيره
وموضوع وصيته:

خليلى بالله لا تحفرا لى القبر إلا بقطر بل

خِلَالَ الْعَاصِرِ بَيْنَ الْكَرُومِ وَلَا تُدْنِيَانِي مِنَ السُّبُلِ
لَعَلِّي أَسْمَعُ فِي حَفَرَتِي إِذَا عَصِرَتْ ضَجَّةَ الْأَرْجَلِ

١ على أن للشاعر مع هذا أبياتاً في الزهد لا نحسبها نظماً منافسةً لأبي العتاهية أو غير أبي العتاهية في هذا الباب من الشعر، وإظهاراً لاقتداره في كل غرض من أغراض النظم. وإنما الذي نراه، أنه كان في بعض هذه الزهديات صادقاً كل الصدق في شعوره، وأن شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المنساقين في حياة الفسوق والشرب، تتابهم في الحين بعد الحين فترات يذكرون فيها الله وموقف الحساب وما ينتظرهم من العقاب، وقد تبتدر عبراتهم وتتصعد زفراتهم، ولكنهم ماضون في ضلالهم لا يستطيعون عنه صبراً:

بَكَيْتُ، وَمَا أَبْكِي عَلَى دَمَنٍ قَفَرٍ وَمَا بِي مِنْ عَشْقٍ فَأَبْكِي عَلَى الْهَجْرِ
وَلَكِنْ حَدِيثٌ جَاءَنَا عَنْ نَبِيْنَا فَذَاكَ الَّذِي أُجْرِي دُمُوعِي عَلَى النَّحْرِ
بِتَحْرِيمِ شَرْبِ الْخَمْرِ وَالنَّهْيِ جَاءَنَا فَلَمَّا نَهَى عَنْهَا بِكَيْتٌ عَلَى الْخَمْرِ
فَأَشْرَبَهَا صِرْفًا وَأَعْلَمَ أَنِّي أُعْزَّرُ فِيهَا بِالثَّمَانِينَ فِي ظَهْرِي
فموقف هذا المدمن السكير في خمره، موقف المؤمن المغلوب على أمره، يشربها وهو عارفٌ حق المعرفة ما يتعرض له من أجلاها في الدنيا وفي الآخرة:
الراحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهَا فَاشْرَبْ وَإِنْ حَمَلَتْكَ الرَّاحُ أَوْ زَارَا
يَأْمَنُ يَلُومُ عَلَى حِمَاءٍ صَافِيَةٍ صِرْ فِي الْجَنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنُ النَّارَا
والقارئ لزهدياته يراه دائماً التفكير في الموت، يتمثل حكمه الجاري على

الأجيال والأشياء من قبلُ ومن بعدُ بغير انتهاء ، فيرى كلَّ جهدٍ الى ضياع ما دامت الغايةُ الفناء .

وتسلَّطُ فكرةُ الموت والشعورُ بفناء كل شيءٍ ووشك زواله ، من الأمور التي قد تؤدى الى الزهد في نعيم هذه الحياة العاجلة ، كما قد تؤدى الى ضد ذلك تبعاً لمزاج الشخص وما رُكِبَ عليه طباعه . ولقد كان من شعور شاعرنا بقصرِ المدة التي للأحياء على هذه الأرض ، وتيقُّظ حسِّه للأيام تعبر به سراعا ، وللعمر ينطوى بساطه تحت قدميه ، وعقد الحياة ينفرط بين يديه ، أن حَرَصَ على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات :

رَأَيْتُ اللَّيَالِيَّ مَرَصَّدَاتٍ لِمَدَّتِي فِيمَادَرْتُ لَدَّا قِيَّ مَبَادِرَةَ الدَّهْرِ

ولعله مما تجب ملاحظته ، أن أبا نواس لا يبرح حتى في زهادياته تغلب عليه نزعتُه الحسية ، فإذا هو ذكر الموت والقبر ، اقترن ذكرها بما يمثله تحت التراب من الوجوه الوضاء ذات السمِّ والرواء .

أَيَارُبَّ وَجْهِ فِي التَّرَابِ عَتِيقٍ وَيَارُبَّ حَسَنِ فِي التَّرَابِ رَقِيقٍ

وَمَا الْحَيَّ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْمَالِكِينَ عَرِيقٍ

وهو إذا زجر نفسه عن الهوى ، ووعظها بالشيب ، واستحشها على العمل الصالح لتفوز مع أهل الطاعة والتقوى بجنة المأوى ، لم يذكر من جنة المتقين إلا نساءها من الحور العين :

أَيُّ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ وَأَيَّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَازِحُ

لله در الشيب من واعظٍ وناصحٍ لو حذر الناصحُ
يا بى الفتى إلا أتباع الهوى ومنهجُ الحق له واضح
فاسمُ بعينيك إلى نسوةٍ مهورهنَّ العملُ الصالح
لا يجتلى الحوراء من خدرها إلا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذى سيق إليه المتجرُ الرابع

ومن كان هذا مزاجه وهذه إرادة طباعه ، فكيف يُرجى له أن يزهد
ويتبتل ، ولا سيما إذا كان حوله من الغوايات والمغريات مثل ما فى بغداد
وأرباضها فى ذلك العصر ، مما لا يحيط به وصف ولا يدخل تحت حصر :

قالوا « تنسك بعد الحج » قلت لهم « أرى ، وأرجو ، وأخشى طير نابذا
أخشى قضيب كرم أن ينازعنى رأس القطار وإن أسرع إغذاذا
ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطربل ، فقرى بى ، فكلواذا
فإن سلمت - وما قلبى على ثقةٍ من السلامة - لم أسلم ببغذاذا

وإلى جانب هذه الغوايات الحسية غواية أدبية ، إن جازت هذه التسمية
على حرص هذا الماجن على ما شاع له من شهرة وصيت فى القبايح والمنكرات .
لقيه أبو العتاهية فى المسجد وقال له : « أما آن لك أن ترعوى ؟ أما آن لك أن
تنزجر وقد بلغت من السن والعلم ما فى دونه يتتظ العاقل اللبيب ، وأنت
تعافر بنت الخارب ، وتصبو صبوة الشبان ! » فرفع أبو نواس رأسه إليه
وهو يقول :

أَتَرَانِي يَا عَتَاهِي تَارِكًا تِلْكَ الْمَلَاهِي !

أَتَرَانِي مُفْسِدًا بِالنَّاسِ بَيْنَ النَّاسِ جَاهِي !

والذي يقرأ عن أبي نواس مَارَكِبَ من المحارم وما بلغ من مجاهرته بالمعاصي ، ويقرأ له شعره في المجون وقبح خروجه أحياناً على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرّض للقتل بجهده ، وما جرّه على نفسه من التعزير والضرب والحبس في المطبق ، وهو لَا يُقَصِّرُ عن باطله ولا ينزع عن جهله ، قد يتصور أنه منكرٌ من الملاحدة المعطلة افتتن بالنظر والفكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو تأثرٌ ماردٌ من العصاة العتاة على غرار إبليس ، يجترئ اجتراءه ويقف من التحدى موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصّى أشعاره وأخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمنٌ مصدّقٌ بقلبه . ولا نقول إنه لم يتشكك ، فقد عاش في عصرٍ من عصور الشك . ولكنه شكٌ من النوع الذي قد يعرّض المؤمن فلا يخرجّه إلى الإنكار ، ثم إن معظمه لا يعدو ما يجري عليه ظرفاء كلِّ عصرٍ من مخالفة العامة وإظهار الخروج على العرف ، يضاف إليه ذهابه مع الخلاعة والمجون إلى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه من كانوا يعذّبونه ويعيبون عليه مجونه رواياتٌ عدةٌ كلّها شاهد على إيمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول إذا أطالوا توبيخه وتخويفه : « والله إني لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يُفِرُّ على » ، وأرجو أن أتوب فيرحمني الله عز وجل .

وظاهر من هذا أن أبا نواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصي وهو فارغ اليال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذى يستطيع تركها والاقلاع عنها التماساً لرضاه . وهى حال من التناقض توقع فى الحيرة ولا يتبين معها وجه الطريق . على أن العصر - بما كان شائعاً فيه من مذاهب الجدل والكلام - لم يَعدَم ما يغالط به ويستند إليه ليمضى فى حياة اللذة التى كان عليها ، من غير حاجة إلى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الإيمان يكفى فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الإنسان ركناً من أركان الإيمان . والمؤمن الذى يرتكب الكبيرة لا يُعدّ كافراً ، بل يقال عليه فاسقٌ فى كذا من غير إطلاق ، وإذا كان غير معدودٍ فى الكفار فهو لا يخلد فى النار . ثم إن الله لا يتخلف فى الثواب وعده ، لأن الثواب فضلٌ فىفى الله به لأن فى خلقه نقصاً . وأما وعيده بالعقاب فقد يتخلف ، لأن العقاب عدلٌ والله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس فى الخلف فى الوعيد نقص . وفى ذلك يقول أبو نواس :

لا بأعمالنا نطيق خلاصاً يومَ تبدو السماتُ فوق الجباه
غير أننا - على الإساءة والتفريط - نرجو لحسنِ عفوَ الإله
ولقد عارض الخوارجُ والمعتزلةُ هذا الرأى أشدَّ المعارضة . ولعلَّ لهم فى ذلك العذر ، لا كراهة لما ينطوى عليه من التسامح ، بل لما قد يؤدى إليه من تهوين أمر المعاصى وخلع الطاعات ، عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غادر المدام وإن كانت محرمةً فللكبائر عند الله غفرانُ

وقد ختم أبو نواس إحدى قصائده في وصف الخمر ، وطروقه للخجارات ،
معرضاً ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو إبراهيم النظام ، لمعارضته
مثلهم لهذا المذهب في العفو عن مرتكب الكبيرة :

قُلْ لِمَن يَدْعَى فِي الْعِلْمِ فَلِسْفَةً : « حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنْ حَظَرَكَهُ بِالْدِينِ إِزْرَاءُ »

من أجل ذلك كان هذا العصر العباسي بما فيه من اللهو ، تروج فيه
مذاهب الإرجاء وخاصة فلسفة العفو^(١) . ولقد أكثر المجان الخلاء من
الشعراء القول في ذلك ، وكادوا يتواصون بالاستكثار من المعاصي ليظهر
عفو الله أجل وأشمل :

تَكَثَّرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْغُ رُبًّا غُفُورًا
سَتَبْصِرَ - إِنْ قَدِمْتَ عَلَيْهِ - عَفْوًا ، وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا
تَعْصُ نَدَامَةً كَفِيكَ مِمَّا تَرَكْتَ - مَخَافَةَ النَّارِ - السُّرُورًا
وَلَا جَرَمَ يَكُونُ أَشَدُّ الْقَوْمِ تَوْرطًا فِي الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي ، أَكْثَرَهُمْ تَوَجُّهًا
إِلَى اللَّهِ ، وَأَلْهَجَهُمْ بِذِكْرِ عَفْوِ اللَّهِ ، وَأَنْ عَفْوُهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَمَا مِنْ
ذَنْبٍ مِثْلِهِمَا عَظُمَ إِلَّا وَعَفْوُهُ أَعْظَمُ . وَلَا جَرَمَ تَكُونُ أَشْعَارُ أَبِي نَوَاسٍ فِي ذَلِكَ
فَوْقَ الْجَمِيعِ وَفَرَةً وَحَرَارَةً لَهْجَةً :

يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ ، عَفْوِ اللَّهَ هـ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرَ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا قَضَى اللَّهُ وَقَدَّرَ

ليس للمخلوق تدبيرٌ بل اللهُ المَدبِّرُ
 أعظم الأشياء في أصل غير عفو الله يصغر
 ولقد أثرت الحياة التي عاشها أبو نواس في صحته ، وفعلت فعلها في
 بنيته ، فذبَّ الوهنُ إلى قوته وغاز معين شرته ، ورث بُرْدُ شبابه وذوى
 عوده ، وبادرته الشيخوخة قبل الأوان ، وأسرع إليه المشيب ولات حين مشيب :
 شيب رأسى الهوى على صغرٍ وليس شيبى من باطن الكبر

وإذا عَدَدْتُ سِنِّي كَمْ هِيَ ، لم أجدُ للشيب عذراً في النزول براسى
 ولم يلبث أبو نواس أن ضعف جسمه عن المقاومة ، على ما به من الحيوية
 والمراح . فجعلت تترادف عليه الأسقام والأوصاب ، وهو يغالبها بالشراب
 ويحمل عليها باللهو ، حتى اشتدت به العلة وأثقله المرض ومنعه عن الحركة .
 فلزم المسكين بيته ، وقضى أياماً مثبتاً في فراشه لا يبرحه ، عميداً لا يقدر على
 الجلوس حتى يُعَمَدَ من بحوانبه بالوسائد . وكان أصدقاؤه يعودونه في مرضه ،
 فيجدونه كلَّ يومٍ أسوأ حالاً من اليوم الذى قبله ، منقوف الوجه ، متغيّر
 اللون ، قد برى السقم جسمه ، وأذهب لحمه وأوهن عظمه . وهو مع ذلك صاحى
 الذهن متنبه الحس ، لا ينى ينظم الشعرَ ويغمغمه في وصف حاله ، ويكتب به
 إلى أصحابه :

شِعْرٌ حَيٌّ أَتَاكَ فِي لَفْظٍ مَيِّتٍ صار بين الحياة والموت وَقفاً

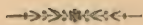
لو تأملتني وأبصرت وجهي لم تجد من مثالي رسمي حرقاً
نفس خافت ، وجسم نحيل أرمضته الأسقام حتى تعفني
ولم يلبث الحسن بن هاني الشاعر الماكن الخليع أن طعني وعاجلته المنية
وكانت وفاته في سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن
في مقابر الشونيزي في التل المعروف بتل اليهود ، على شاطئ نهر عيسى ببغداد .
وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

نازعنيك الزمان يا «حسن» نخاب سهمي وأفلح الزمن
ليمتك إذ لم تكن بقيت لنا لم تبق روح يحوطها بدن
ومما يروى عنه في مرض موته أنه التفت ذات مرة إلى عواده فقال :
« لا تشربوا الخمر صرفاً ، فإني شربتها صرفاً فأحرقت كبدي » . وكان
لا يكف في كل مرة - مع ضعفه وخفوت صوته - عن إنشادهم شعراً له بعد
شعر ، يظهر فيه التوبة ، ويطلب من الله الصفح والمغفرة :

دب في الفناء سقلاً وعُلوا وأراني أموتُ عُضواً فعُضوا
ذهبت شررتي بجدة نفسي ، وتذكرت طاعة الله نضوا
ليس من ساعة مضت بي إلا نقصتني بمرها بي جزوا
لهف نفسي على ليالي وأيا م سلكتهن لعباً وهوا
قد أسأنا كل الإساءة - يار ب - فصفحاً عنا إلهي وعفوا

وقد مضى بعضُ أصدقائه إلى بيته عقب وفاته ودَفَنه ، فدخل إلى مرقده
وثيابه لم تحرك بعد ، فإذا كلُّ ما خلفه قِمَطَرٌ فيه دفاتر وجدادات قراطيس
فيها نسخُ أشعارٍ وغريب ألفاظٍ ، ونَزْدٌ وشطرنجٌ وعودٌ وطنبور . فَرَفَعَ
وسادته ، فإذا برقعةٌ مكتوبٌ فيها :

يا ربِّ ، إن عظمتُ ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأنَّ عفوَّكَ أعظمُ
عِالي إليك وسيلةٌ إلا الرجا وجميلُ عفوَّكَ ، ثم أني مسلمُ .



ثبت المراجع

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني	الكامل لابن الأثير
وفيات الأعيان لابن خلكان	الفخري لابن الطقطقي
أخبار أبي نواس لابن منظور	مروج الذهب للمسعودي
ديوان أبي نواس لجامعه حمزة الاصبهاني	تاريخ بغداد للخطيب البغدادى
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي	تاريخ دمشق لابن عساكر
معجم الأدباء لياقوت الحموى	الولاية والقضاة للسكندى
نزهة الالباب لابن الأنبارى	معجم البلدان لياقوت الحموى
المعارف لابن قتيبة	البلدان لليعقوبى
الفهرست لابن النديم	حديث الأربعاء للكتورطه حسين بك
العقد الفريد لابن عبد ربه	ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين بك
نهاية الأرب للنويرى	حضارة الاسلام للأستاذ نخلة المدور
البيان والتبيين والحيوان للجاحظ	الديارات النصرانية للاستاذ حبيب زيات
الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم	تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان
الملل والنحل للشهرستانى	مجلة الهلال (العدد الخاص بأبي نواس)
الوزراء والكتاب للجهشياري	دائرة المعارف الإسلامية الخ ...
تاريخ الأمم والملوك للطبرى	

دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترجمت دائرة المعارف الإسلامية

أحمد السنتاوى . عبد الحميد يونس

أبراهيم زكى فورشير . حافظ جهول

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

إدارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

- ١ - عمرو بن العاص لمؤتاه عباس محمد العفاد صدر في مارس سنة ١٩٤٤
- ٢ - منصور الأندلس » على أدهم » » ابريل »
- ٣ - بشار بن برد » ابراهيم عبد القادر المازني » » مايو »
- ٤ - المعز لدين الله » ابراهيم جلول بك » » يونيه »
- ٥ - محمد عبده للذكر نور عثمانه أمين » » يوليه »
- ٦ - أبو نواس لمؤتاه عبد الرحمن صدي » » أغسطس »

الكتاب السابع

محمد علي الكبير لمؤتاه شفيق غربال

يصدر في سبتمبر سنة ١٩٤٤

